رؤية قرآنية حول مفهوم الإصلاح

إعـداد : د.محمد الأمين بلة[1]

رؤية قرآنية حول مفهوم الإصلاح

ملخص البحث

حاول الباحث في هذه الدراسة أن يجد إجابات من خلال اللغة العربية و تعريفات أهل الاصطلاح، و أهل الحرف والصناعات المختلفة، ومن خلال آي القرآن الكريم مفهوم الإصلاح، واستطاع من خلال دعوات الأنبياء أن يثبت أن مفهوم الإصلاح يشمل إصلاح كافة جوانب الحياة، العقدية والفكرية والأخلاقية والاجتماعية والتربوية والاقتصادية والسياسية، وإزالة كل مظاهر الفساد، وأن الإصلاح يتم بالتدرج الهادي المستمر، وتشكيل القناعات لا بالثورات وإراقة الدماء، وأن مضمون الإصلاح المعرفي هو الموقف النقدي (التقويمي)، وهو الموقف الذي يتجاوز كل من موقفي الرفض والقبول المطلقين، إلى موقف قائم على أخذ وقبول ما هو صواب، ورد ورفض ما هو خطأ. وقد دعا الإسلام إلى الالتزام بالموقف النقدي، بعد تقييده بمعايير موضوعية مطلقة، هي النصوص اليقينية الورود القطعية الدلالة، وقد استخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي، وختم البحث بأهم النتائج التي توصل إليها.

قسم الباحث هذه الدراسة إلى مقدمة وخمسة مباحث بمطالبها، على النحو الآتي:

المبحث الأول:معنى الإصلاح لغة واصطلاحاً.

المبحث الثاني:مفهوم الإصلاح في القرآن الكريم.

المبحث الثالث: التعريف المنهجي للإصلاح وخصائصه.

المبحث الرابع: مجالات الإصلاح.

مقدمة :

الإصلاح من المصطلحات التي عرفت قديماً وشاعت في تاريخ الفكر العربي والإسلامي وتاريخ الإنسانية قاطبة، خاصة في ما يتصل بحركات الإصلاح الديني التي مثلتها النبوات المتصلة التي نزلت لإصلاح حياة البشرية الأخلاقية والاجتماعية والفكرية والسياسية والاقتصادية من لدن آدم أبو البشر عليه السلام. إلي محمد رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين صلي الله عليه وعلي قرابته وصحابته.

١/* أستاذ مساعد -جامعة الجزيرة - معهد إسلام المعرفة

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

يريد الباحث أن يجد الإجابة على هذه الأسئلة من آي القرآن الكريم هل الإصلاح قيمة حاضرة في تفاصيل حياتنا أم هو نغمة ترددها الشفاه دون جدوى؟: من هم دعاة الإصلاح ؟ النخبة والمثقفون :أم الجماهير؟ أم الاثنان معاً؟ وما هي أدواته ووسائله وأولياته و مجالاته؟ وهل له نقطة ينتهي عندها أم هو عملية متجددة ومستمرة وفقاً لحاجات الإنسان المتطورة؟ ولماذا الغلبة في الإصلاح يقصد بها الشأن السياسي والاقتصادي؟ بالرغم من أن مفهوم الإصلاح يتراءى لنا أنه مصطلح ذو مفهوم شامل؟.هل الإصلاح ثورة عارمة أم تغير متدرج هادئ يراعي الأحوال والمظان؟ لماذا يخشي كثير من الناس الإصلاح؟

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

المبحث الأول
معنى الإصلاح لغة واصطلاحاً

المطلب الأول: معنى الإصلاح في اللغة:

الإصلاح لغة نقيض الإفساد،[١] والصلاح ضد الفساد، يقال رجل صالح في نفسه من قوم صلحاء، ومصلح في أعماله وأموره، ويقول الراغب في المفردات:(الصلح يختص بإزالة النفار بين الناس، وإصلاح الله تعالى الإنسان يكون تارة بخلقه إياه صالحاً، وتارة بإزالة ما فيه من فساد بعد وجوده، وتارة يكون بالحكم له بالصلاح)[٢]. والإصلاح : نقيض الإفساد، والاستصلاح نقيض الإستفساد، وأصلح الشئ بعد فساده أي أقامه، وأصلح الدّابة، أحسن إليها فصلحت .والصلح تصالح القوم بينهم، والصلح السلم.، صلح صلاحاً وصلوحاً: زال عنه الفساد، والشئ كان نافعاً أو مناسباً، يقال: هذا الشئ يصلحك[٣].

أصلح ذات بينهما: أزال ما بينهما من عداوة وشقاق، وفي التنزيل، قال تعالى:(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا) ﴿ الحجرات: ٩﴾،(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ) ﴿الأنفال:١﴾. واستصلح الشئ: تهيأ للصلاح. والصالح: المستقيم المؤدي لواجباته، والصلاح: الاستقامة والسلامة من العيب، والصلح إنهاء الخصومة، أن الصلاح ما يتمكن به الخير أو يتخلص به من الشر، الصلح كل ما صلح فيه بين. كالصلح بين المتخاصمين وغير ذلك[٤]. وفلان صلح ضد فجر فهو بر.[٥]، إذ صلح الناس وبروا وليهم الأبرار، وإذا فسدوا وفجروا وليهم الأشرار.[٦]

المطلب الثاني: معنى الإصلاح اصطلاحاً:

الصلاح مختص في أكثر الاستعمال بالأفعال، وقوبل في القرآن تارة بالفساد وتارة بالسيئة، قال تعالى: (خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً) ﴿التوبة: ١٠٢﴾، وقال أيضاً: (وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا) ﴿الأعراف: ٥٦.﴾والصلاح هنا يراد به أن يكون الإنسان صالحاً في ذاته، قد بدأ بنفسه فطهرها وهذبها وأقامها على الصراط فأصبحت نفساً طيبة صالحة، يقول الإمام الغزالي رحمه الله :(فحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه فيصلحها

١ / الصحاح في اللغة، ٣٩٣/١، لسان العرب، ١٠٣/١٥.
٢ /المفردات، للراغب الأصفهاني،٢٣٢/١.
٣ / المعجم الوسيط، ٤٨/١.
٤ / الفروق في اللغة١٨١/١، الكليات لأبي البقاء٢٨٤/٤
٥ / المعجم الوسيط ٤٨/١.
٦ / لسان العرب١٠/١٥.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات)[1] ، ويقول الآلوسي رحمه الله: (الصلاح عبارة عن الإتيان بما ينبغي والاحتراز عمّا ينبغي)، وهو أي: الصلاح: جامع لكل خير وله مراتب غير متناهية، ومرتبة الكمال فيه مرتبة عليا، ولذا طلبها الأنبياء عليهم السّلام كما قال النبي سليمان عليه السّلام:(وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) النمل: ١٩ ,[2] يقول الإمام الغزالي رحمه الله بعدما وضّح واجب المسلم تجاه نفسه بتهذيبها، شرع في بيان معنى الإصلاح فقال: (ثم يعلم ذلك – أي الذي قام بتهذيب نفسه وصلاحها – ثم أهل بيته و يتعدى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه ثم إلى أهل محلته ثم إلى أهل بلده ثم إلى أهل السواد المكثف، ثم إلى أهل البوادي من الأكراد والعرب وغيرهم...)[3]، وبتوافر عنصري الصلاح في النفس والإصلاح للنفس يتحقق للإنسان اكتمال فضيلة أخلاقية قرآنية ذات شقين، يكمل أحداهما الأخرى، تلك هي ما عبرت عنه بكلمتي (الصلاح والإصلاح)[4]، فإذا عرفنا بأن الإصلاح هو القيام بتهذيب الآخرين والتعدي من النفس إلى الغير، إذاً أدركنا ذلك، فبم يتحقق وكيف يتم ذلك؟ .يقول الإمام ابن تيمية: رحمه الله: (إنّ صلاح العباد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنّ صلاح المعاش والعباد في طاعة الله ورسوله، ولا يتم ذلك إلاّ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، و به صارت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس)[5]، فمضمون الإصلاح إما أمر بمعروف أو نهي عن منكر، وجاء في معجم العلوم الاجتماعية أن المقصود بالإصلاح هو « تغيير في نموذج من النماذج الاجتماعية أملاً في الوصول إلى تجسيد ذلك النموذج، وحركات الإصلاح بمعنى الكلمة تنزع إلى تخفيف مساوئ النظام الاجتماعي وتصحيح الأوضاع الفاسدة وذلك عن طريق تعديل في بعض النظم الاجتماعية دون أن يؤدي ذلك إلى تغيير البناء الأساسي للمجتمع «.[6] ويمكن تعريف الإصلاح بأنه تغيير أنماط أو قواعد أو أنظمة عمل أو سلوك على المستوى الفردي، أو المجتمعي أو المؤسسي بناء على تشخيص مسبق ودقيق بما يضمن معالجة شاملة لأوجه العجز أو القصور، أو الخلل، ويحقق النهوض بالمجتمع من كافة الجوانب، ويحد من الفساد، وبذلك فالإصلاح ليس عملاً فردياً، بل هو عمل يعتمد

١ / إحياء علوم الدين، للغزالي،١/ ٣٤.

٢ / تفسير الألوسي،٣/ ٢٠.

٣ /المرجع السابق نفسه.

٤ / إحياء علوم الدين، للغزالي،١/ ٦٢.

٥ /مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ٨٢ /٠٣.

٦ /أنظر: قاموس المعاني:www.almaai.com/home.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

على المشاركة، فليس المصلح هو من يعمل ويفكر ويقرر وحده، بل هو من يعمل مع أفراد المجتمع ويقوم بالتفكير معهم، واتخاذ القرار بشكل جماعي بعيداً عن القرار الفردي، ومفهوم الإصلاح مفهوم شامل لكل جوانب الحياة، لا يقتصر على جانب أو جوانب ويهمل الأخرى، وهذا يؤكد على أن تحقيق الإصلاح يتطلب التنفيذ بشكل متواز لجميع المجالات التي تتطلب الإصلاح، وليس بشكل متتال أو متتابع.

كما ورد مفهوم الإصلاح عند أهل المصطلح بعدة تعريفات أيضاً: فمثلاً عند أصحاب الصناعات والحرف المختلفة بالآتي:[1]

١ .»يقال: لمن يَقومُ بِإِصْلاحِ السَّاعاتِ»: أي يُصْلِحُ عَطَبَها .

٢ .»إذا قامَ الفَلاَّحونَ بِإِصْلاحِ أَراضيهِمْ»: أي تَهْيِئَتُها وَجَعْلُها صالِحَةً لِلزِّراعَةِ .

٣ .» شَرَعوا في إِصْلاحِ البِناياتِ القديمَةِ»:اي بِتَرْصيصِها وَتَرْميمِهَا. وعُرّف الإصلاح الاجتماعي: في علوم الاجتماع بمجموعة الأنشطة التي تهدف إلى إعادة التَّنظيم للمؤسَّسات الاجتماعيّة للوصول إلى مستوى أفضل من العدالة الاجتماعيّة، كما يقصد به القضاء على الفساد في الأجهزة الحكوميّة والمتناقضات في أهداف المؤسَّسات المختلفة ونظمها. وعند المصلحين الاجتماعيين الدينين يعرف بإصلاح ذات البين وهذه الكلمة تدور حول عدة معاني هي: إصلاح ما بين، إصلاح ذات البين، تلئيم ما بين، توفيق ذات البين، تأليف ، مصالحة، توفيق، مسالمة، تأليف القلوب، القيام أو العمل علي عقد التصالح بين الشخصين، مصالحة عامة توفيق ما بين، تأليف، توفيق ذات البين، إرضاء، تنظيم بالتراضي أو بالمصالحة، تنظيم بالتداول، جعله يتصالح و يتوافق، إصلاح ذات البين، موافقة، إنهاء علي وجه حسن، التوفيق ما بين، إقناع، ترضية. وعند أهل الاختصاص الزراعي بأن الإصلاح الزِّراعيّ:(الزراعة) حركة يُراد بها تقييد الملكيَّات الزِّراعيّة، وتوزيع ما اقتطع منها على الفلاَّحين الذين لا يملكون أرضًا زراعيّة توزيعًا عادلاً .[2] كما ورد تعريفه عند أهل المال والاقتصاد بأنه: قرض إصلاح اقتصادي: يستخدم هذا الاصطلاح من قبل البنك الدولي ويعني قرض لتمويل الإصلاح الاقتصادي في دولة نامية عضو بالبنك، بشرط تبنّي الدولة لبرنامج إصلاح اقتصادي يقبله البنك، وتعني بالانجليزية : adjustment loan .[3] كل ذلك إصلاح ويدلل على أن هذا المفهوم يستغرق كافة جوانب الإصلاح للحياة البشرية.

١ / أنظر: قاموس المعاني:www.almaai.com/home المعجم الغني.

٢ / أنظر: قاموس المعاني:www.almaai.com/home. معجم اللغة العربية المعاصر.

٣ / المعاملات المالية المعاصرة في الفكر الاقتصادي الإسلامي، ياسر بن طه على كراويه،٥١/١.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

وهنا أرى أن الإصلاح يتم بطريقة علمية عندما تتم مناقشة القضايا المتعلقة بمصالح المواطن، ويتم تقصي آراءه، وتحديد المشكلات التي يعاني منها ودراستها، والتوصل إلى أفضل الأساليب لمعالجتها بما يضمن تحقيق العدالة الاجتماعية، والمساواة للجميع. كما أن مفهوم الإصلاح بحاجة إلى توحيد للمصطلحات؛ بحيث يكون مفهوم الإصلاح عند مؤسسات الدولة المختلفة هو المفهوم نفسه عند المواطن، وهذا يحتم بأن تكون الحقائق والمفاهيم والمفردات للإصلاح متشابهة لنفس المضامين، وتختلف باختلاف المضامين، ويمكن الخلوص من ذلك كله إلى أن الإصلاح همٌّ عام، وتوجه مجتمع بأكمله، وينظر له بأنه من أهم عناصر التنمية، ومن أهم واجبات المواطنة الصالحة، وجزء أساسي من منظومة عمل، ومكون أساسي من برنامج وخطة دولة.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

المبحث الثاني

مفهوم الإصلاح في القرآن الكريم

المطلب الأول: معاني كلمة الإصلاح في القرآن الكريم:

جاءت كلمة الإصلاح في القرآن الكريم سبعة عشر مرة وهي تحمل المعاني التالية:[1] تعني الإيمان في كثير من النصوص القرآنية، فمثلاً: قوله تعالى: (ومن صلح)، في كقوله تعالى:(رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (غافر:٨) ، و تعني: من آمن، (والصالحين)أي :المؤمنين، كما في قوله تعالى:(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً) (النساء: ٩٦)، ووردت بلفظ: (عبادك الصالحين)أي: المؤمنين، كقوله تعالى:(وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) (النمل:١٩)، ووردت بلفظ (بالصالحين)، مثال قوله تعالى:(تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)(يوسف: ١٠١). أي: بالمؤمنين. وتعني أيضاً: حسن المنزلة، مثال قوله تعالى: (قوماً صالحين):(وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ) (يوسف: ٩) ،ووردت بلفظ: (لمن الصالحين) كقوله تعالى: (وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) (البقرة: ١٣٠). وتعني الرفق، في قوله: (من الصالحين)، قال تعالى: (وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ) (آل عمران:٣٠)، وبلفظ: (وأصلح)، كقوله تعالى: (إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (البقرة:١٦٠). كما تعني: تسوية الخلق، كقوله تعالى: (آتيتنا صالحاً)، كقوله تعالى: (دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (الأعراف: ١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (الأعراف:١٩٠) . وتعني: الإحسان (إلا الإصلاح)، كقوله تعالى: (إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْأَصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) (هود:٨٨). وتعني الطاعة :(نحن مصلحون)أي مطيعون، كقوله تعالى:(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ)(البقرة:١١)، ووردت بلفظ: (بعد إصلاحها)، كقوله تعالى:(وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) (الأعراف:٥٦))، (وعملوا الصالحات) كقوله تعالى:(لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا

١ / انظر: القاموس الوجيز لمعاني كلمات القرآن،٣١/١ القاموس الوجيز لمعاني كلمات القرآن الكريم تأليف الميرزا محسن آل عصفور،موقع شبكة مشكاة الإسلامية http:// www.almeshkat.net.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (المائدة: ٩٣). وأداء الأمانة (أبوهما صالحاً)، كقوله تعالى: (أَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً) (الكهف:٨٢)، بر الوالدين: (تكونوا صالحين)،مثال قوله تعالى: (إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً) (الإسراء:٢٥). وتعني:الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (وأهلها مصلحون)، أي:آمرون بالمعروف ناهون عن المنكر، كقوله تعالى:(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) (هود:١١٧). شكر الله على النعم(أعمل صالحاً)(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) (النمل: ١٩). وهذه المعاني جميعها تدل على شمول مفهوم الإصلاح لإزالة الفساد عن جوانب الحياة كلها، وقد أشارت الكثير من النصوص القرآنية إلى مفهوم الإصلاح بمعانيه المتعددة، وجعله القرآن جوهر الرسالات السماوية، فقد ورد بعدة معانٍ منها: ما يقابل الفساد:(وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا) (الأعراف: ٥٦)، ومنها ما يقابل السيئة:(خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا) (التوبة: ١٠٢)، وتوفيقَ الله لعباده لعمل الصَّالحات:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ) (الأحزاب: ٧١)، ومحو التباغض بين المتخاصمين:(وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ النَّاسِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) البقرة: ٢٢٤)... (إِنْ يُرِيْدَا إِصْلاَحاً يُوفِقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا) (النساء:٣٥)، يجتمع الحكمان لمحاولة الإصلاح . فإن كان في نفسي الزوجين رغبة حقيقية في الإصلاح، وكان الغضب فقط هو الذي يحجب هذه الرغبة ، فإنه بمساعدة الرغبة القوية في نفس الحكمين ، يقدر الله الصلاح بينهما والتوفيق، قال تعالى : (إِنْ يُرِيْدَا إِصْلاَحاً يُوفِقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا) (النساء:٣٥) . .فهما يريدان الإصلاح، والله يستجيب لهما ويوفق . . تحكيم هذا الكتاب في حياة الناس لإصلاح هذه الحياة، مع إقامة شعائر العبادة لإصلاح قلوب الناس . فهما طرفان للمنهج الذي تصلح به الحياة والنفوس، ولا تصلح بسواه . . والإشارة إلى الإصلاح في الآية :(إنا لا نضيع أجر المصلحين)، العمل الصالح ليس مجرد طيبة في النفس وشعائر مفروضة تقام؛ إنما هو الإصلاح في الأرض بكل معاني الإصلاح، من بناء وعمارة ونشاط ونماء وإنتاج. فوصف به إبراهيم:(وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) (البقرة: ١٣٠)، وعيسى: (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ)آل عمران(٤٦: ،وشعيب :(إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) (هود: ٨٨). يقول الإمام الرازي في تفسيره الكبير والمعنى: ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتي

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

ونصيحتي، وقوله ما (استطعت) فيه وجوه:[1] الأول: أنه ظرف والتقدير مدة استطاعتي للإصلاح وما دمت متمكنا منه لا آلو فيه جهداً. الثاني: أنه بدل من الإصلاح، أي المقدار الذي استطعت منه. الثالث: أن يكون مفعولاً له أي ما أريد إلا أن أصلح ما استطعت إصلاحه. ثم يميز القرآن الكريم بين الإصلاح الحقيقي على الوجه السابق بيانه وادعاء الإصلاح، قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ) (البقرة:١١- ١٢)، إن الغرض الأكبر للقرآن هو إصلاح الأمة بأسرها، فإصلاح كفارها بدعوتهم إلى الإيمان ونبذ العبادة الضالة واتباع الإيمان والإسلام، وإصلاح المؤمنين بتقويم أخلاقهم وتثبيتهم على هداهم وإرشادهم إلى طريق النجاح وتزكية نفوسهم، ولذلك كانت أغراضه مرتبطة بأحوال المجتمع في مدة الدعوة، فكانت آيات القرآن مستقلاً بعضها عن بعض، لأن كل آية منه ترجع إلى غرض الإصلاح والاستدلال عليه، وتكميله وتخليصه من تسرب الضلالات إليه فلم يلزم أن تكون آياته متسلسلة، ولكن حال القرآن كحال الخطيب يتطرق إلى معالجة الأحوال الحاضرة على اختلافها وينتقل من حال إلى حال بالمناسبة ولذلك تكثر في القرآن الجمل المعترضة لأسباب اقتضت نزولها أو بدون ذلك؛ فإن كل جملة تشتمل على حكمة وإرشاد أو تقويم معوج، قال تعالى: (فَلاَ جُنَاحَ عَلَيهِمَاَ أَنْ يُصْلِحَاَ بَيْنَهُمَا صُلْحَاً وَالْصُّلْحُ خَيْرٌ) (النساء : ١٢٨)، فنفى الجناح عن التصالح وأثبت له أنه خير فالجناح المنفي عن الصلح ما عَرَض قبله من أسباب النشوز والإعراض، ومثله قوله تعالى :(فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (البقرة : ١٨٢)، مع أن الإصلاح بينهم مرغب فيه وإنما المراد لا إثم عليه فيما نقصَ من حق أحد الجانبين وهو إثم عارض، و صلاح الثمرة كونها بحيث ينتفع بأكلها دون ضر، وصلاح المال نماؤه المقصود منه، وصلاح الحال كونها بحيث تترتب عليها الآثار الحسنة . ووصف الإصلاح ب (لهم) دون الإضافة إذ لم يقل إصلاحهم لئلا يتوهم قصره على إصلاح ذواتهم لأن أصل إضافة المصدر أن تكون لذات الفاعل أو ذات المفعول فلا تكون على معنى الحرف ، ولأن الإضافة لما كانت من طرق التعريف كانت ظاهرة في عهد المضاف فعدل عنها لئلا يتوهم أن المراد إصلاح معين كما عدل عنها في قوله: (قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ) (يوسف: ٥٩)، ولم يقل بأخيكم ليوهمهم أنه لم يرد أخاً معهوداً عنده، والمقصود هنا جميع الإصلاح لا خصوص إصلاح ذواتهم فيشمل إصلاح

١ /تفسير الرازي، للرازي،٨/ ٨٥٤.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

ذواتهم وهوفي الدرجة الأولى ويتضمن ذلك إصلاح عقائدهم وأخلاقهم بالتعليم الصحيح والآداب الإسلامية ومعرفة أحوال العالم، ويتضمن إصلاح أمزجتهم بالمحافظة عليهم من المهلكات والأخطار والأمراض وبمداواتهم، ودفع الأضرار عنهم بكفاية مؤنهم من الطعام واللباس والمسكن بحسب معتاد أمثالهم دون تقتير ولا سرف، ويشمل إصلاح أموالهم بتنميتها وتعهدها وحفظها . ولقد أبدع هذا التعبير ، فإنه لو قيل إصلاحهم لتوهم قصره على ذواتهم فيحتاج في دلالة الآية على إصلاح الأموال إلى القياس ولو قيل قل تدبيرهم خير لتبادر إلى تدبير المال فاحتيج في دلالتها على إصلاح ذواتهم إلى فحوى الخطاب. و (خير) في الآية يحتمل أن يكون أفعل تفضيل إن كان خطاباً للذين حملهم الخوف من أكل أموال اليتامى على اعتزال أمورهم وترك التصرف في أموالهم بعلة الخوف من سوء التصرف فيها كما يقال: إن السلامة من سلمى وجارتها أن لا تحل على حالٍ بواديها.

فالمعنى إصلاح أمورهم خير من إهمالهم أي أفضل ثواباً وأبعد عن العقاب ، أي خير في حصول غرضكم المقصود من إهمالهم فإنه ينجم منه إثم الإضاعة ولا يحصل فيه ثواب السعي والنصيحة، ويحتمل أن يكون صفة مقابل الشر إن كان خطاباً لتغيير الأحوال التي كانوا عليها قبل الإسلام، فالمعنى إصلاحهم في أموالهم وأبدانهم وترك إضاعتهم في الأمرين كما تقدم خير، وهو تعريض بأن ما كانوا عليه في معاملتهم ليس بخير بل هو شر، فيكون مراداً من الآية:(وَاللَّه يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ) (البقرة، ٢٢٠)، وقد شاع في الاستعمال إطلاق الصلح على التراضي بين الخصمين على إسقاط بعض الحقّ، وهو الأظهر هنا. ومعنى (أَصْلح) (فَعَلَ الصلاح، وهو الطاعة لله فيما أمر ونهى، لأنّ الله ما أراد بشرعه إلاّ إصلاح الناس كما حكى عن شعيب، قال تعالى:(إن أريد إلاّ الإصلاح ما استطعت) (هود : ٨٨)[1] . النَّهي عن الإشراك لأنّ إصلاح الاعتقاد هو مفتاح باب الإصلاح في العاجل، والفلاح في الآجل، قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ) (سورة البقرة: ١١)، صلاح في الأرض، لأنّ الأوّل إيجاد الشّيء صالحاً، والثّاني جعل الضّار صالحاً بالتّهذيب أو بالإزالة، إنّ الإصلاح موضوع للقدر المشترك بين إيجاد الشّيء صالحاً وبين جعل الفاسد صالحاً . فالإصلاح هنا مصدر في معنى الاسم الجامد، وليس في معنى الفعل، لأنّه أريد به إصلاح حاصل ثابت في الأرض لا إصلاح هو بصدد الحصول، فإذا غُيّر ذلك النّظام فأفْسِد الصّالحُ، واستُعمل الضّار على ضرّه، أو استبقى مع إمكان إزالته، كان

١ / التحرير والتنوير،٧/٢٩٣.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

إفساداً بعد إصلاح، كما أشار إليه قوله تعالى:(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ) (الأنفال: ٧٣). وقد جمع له في وصيته ملاك السياسة بقوله :(وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ) (الأعراف: ١٤٢)، فإن سياسة الأمة تدور حول محور الإصلاح، وهو جعل الشيء صالحاً، فجميعُ تصرفات الأمة وأحوالها يجب أن تكون صالحة. ابتدئ التشريع بالنهي عن عبادة غير الله لأن ذلك هو أصل الإصلاح، لأن إصلاح التفكير مقدم على إصلاح العمل، إذ لا يشاق العقل إلى طلب الصالحات إلا إذا كان صالحاً. وفي الحديث :» ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[1]. ومعنى قوله تعالى:(إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ) أي: مقصورون على الإصلاح المحض الذي لم يشبه شيء من وجوه الفساد. (وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ)(البقرة:٢٢٠-٢٢٤)، وقوله تعالى: (قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ) أي مداخلتهم مداخلة يترتب عليها إصلاحهم أو إصلاح أموالهم بالتنمية والحفظ خير من مجانبتهم، وفي الاحتمال الأول إقامة غاية الشيء مقامه . (إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحاً) أي إن أراد البعولة بالرجعة إصلاحاً لما بينهم وبينهن، ولم يريدوا الإضرار بتطويل العدّة عليهنّ مثلاً ، وليس المراد من التعليق اشتراط جواز الرجعة بإرادة الإصلاح حتى لو لم يكن قصده ذلك لا تجوز للإجماع على جوازها مطلقاً، بل المراد تحريضهم على قصد الإصلاح حيث جعل كأنه منوط به ينتفي بانتفائه، قال تعالى: (أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ) (النساء:١٢١-١٢٤)، وتخصيصه بالقرض وإغاثة الملهوف وصدقة التطوع، وتخصيص الصدقة فيما تقدم بالصدقة الواجبة مما لا داعي إليه وليس له سند يعول عليه، وخص الصدقة والإصلاح بين الناس بالذكر من بين ما شمله هذا العام إيذاناً بالاعتناء بهما لما في الأول: من بذل المال الذي هو شقيق الروح، وما في الثاني : من إزالة فساد ذات البين وهي الحالقة للدين كما في الخبر، وقدم الصدقة على الإصلاح لما أن الأمر بها أشق لما فيه من تكليف بذل المحبوب، والنفس تنفر عمن يكلفها ذلك، ولا كذلك الأمر بالإصلاح، وذكر الإمام الرازي أن السر في إفراد هذه الأقسام الثلاثة بالذكر: [2]«أن عمل الخير المتعدي إلى الناس، إما لإيصال المنفعة أو لدفع المضرة، والمنفعة إما جسمانية كإعطاء المال، وإليه الإشارة بقوله تعالى : (إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ)، وإما روحانية وإليه الإشارة بالأمر بالمعروف، وأما رفع الضرر فقد أشير إليه بقوله تعالى:(أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ) ولا يخفى ما فيه، والمراد من الإصلاح بين الناس التأليف بينهم بالمودة إذا تفاسدوا من غير أن

١ / البخاري، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم(٣٩٨٤)، ومسلم، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (٤١٧٨).

٢ / انظر: تفسير الرازي،٥ / ٣٧٩.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

يجاوز في ذلك حدود الشرع الشريف، نعم أبيح الكذب لذلك، فقد أخرج الشيخان وأبو داود عن أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس الكذاب بالذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً، وقالت : لم أسمعه يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث : في الحرب والإصلاح بين الناس وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها «[1]. وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أفضل الصدقة إصلاح ذات البين «[2]. وهذا الخبر ظاهر في أن الإصلاح أفضل من الصدقة بالمال، ومثله ما أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وصححه عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى قال: إصلاح ذات البين «[3]، ولا يخفى أن هذا ونحوه مخرّج مخرج الترغيب ، وليس المراد ظاهره إذ لا شك أن الصيام المفروض والصلاة المفروضة والصدقة كذلك أفضل من الإصلاح اللهم إلا أن يكون إصلاح يترتب على عدمه شر عظيم وفساد بين الناس كبير . (وَلاَ تُفْسِدُواْ في الأرض) بالجور أو به وبالكفر (بَعْدَ إِصْلاَحِهاَ) أي إصلاح أمرها أو أهلها بالشرائع، فالإضافة من إضافة المصدر إلى مفعوله بحذف المضاف ، والفاعل الأنبياء وأتباعهم . وجوز أن لا يقدر مضاف ويعتبر التجوز في النسبة الإيقاعية لأن إصلاح من في الأرض إصلاح لها ، وأن تكون الإضافة من إضافة المصدر إلى الفاعل على الإسناد المجازي للمكان، وأن تكون على معنى في أي بعد إصلاح الأنبياء فيها ، ويأبى الحمل على الظاهر لأن الإصلاح يتعلق بالأرض نفسها كتعميرها وإصلاح طرقها لا تفسدوا في الأرض . ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ ما يحتاج إلى الإصلاح من أمور دينهم، أو كن مصلحاً على أنه منزل منزلة اللازم من غير تقدير مفعول . وعن ابن عباس أنه يريد الرفق بهم والإحسان إليهم، وقيل: المراد احملهم على الطاعة والصلاح، قال تعالى: (وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ) (الأعراف: ١٤٢)، أي ولا تتبع سبيل من سلك الإفساد بدعوة وبدونها.[4]. حمل الظلم على مطلق الفساد الشامل لسائر القبائح والآثام وحمل الإصلاح على إصلاحه والإقلاع عنه بكون البعض متصدياً للنهي . والبعض الآخر متوجهاً إلى الاتعاظ غير مصر على ما هو عليه من الشرك وغيره من أنواع الفساد. عن جرير قال:» سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسئل عن تفسير هذه الآية: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) (هود: ١١٧)، فقال عليه الصلاة

١ / البخاري، باب ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس، رقم (٢٦٩٢)، ومسلم، باب تحريم وبيان ما يباح منه، رقم (٦٧٩٩).

٢ / سنن أبودود، باب في إصلاح ذات البين، رقم (٤٩١٩).

٣ / أبو داود، باب ماجاء في إصلاح ذات البين، رقم (٤٩١٩).

٤ / تفسير الألوسي،٦/٢٣٧.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

والسلام: (وأهلها ينصف بعضهم بعضاً) وأخرجه ابن أبي حاتم . والخرائطي في مساوي الأخلاق عن جرير موقوفاً، وهو ظاهر في المعنى الذي نقله الطبري، ولعله لم يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلا فالأمر مشكل، وجعل التصدي للنهي من بعض والاتعاظ من بعض آخر من إنصاف البعض.[1] ، قال تعالى: (قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ) (البقرة:٢٢٠)، الإصلاح لليتيم يتناول إصلاحه بالتعليم والتأديب، وإصلاح ما له بالتنمية والحفظ[2]. يقول القاشاني: (كانوا يرون الصلاح في تحصيل المعاش، وتيسير أسبابه، وتنظيم أمور الدنيا لتوغلهم في محبة الدنيا)[3].

المطلب الثاني: مصطلح الإصلاح يشمل جميع جوانب الحياة:

الإصلاح يتضمن أيضاً، إصلاح النواحي الأخلاقية والعقدية والاقتصادية والفكرية والثقافية والتربوية والسياسية، باعتبار أن مدلول مصطلح الإصلاح شامل وعام يغطي جوانب الحياة كافة. وعلي هذا النحو بعث الله الأنبياء والمرسلين مبشرين ومنذرين ومعلمين للبشرية ومخلصين لها من آلام الدنيا وعذاب الآخرة والتخبط في طريق الحياة الطويل :وإذا كان الإصلاح بمدلوله اللغوي يعني أنه ضد الفساد والإفساد في الكون وفي الحياة وفي حاجات الإنسان، فإننا من هنا ندرك أن عملية الإصلاح عملية شاقة ومستمرة؛ ومطلوبة في كل زمان ومكان مع أهمية وجود الإصلاح وإزالة الفساد في النظم كافة: الاجتماعية منها والسياسية والاقتصادية والدينية والفكرية والثقافية والأدبية أيضاً والتربوية ومن هذا المدخل أيضاً ندرك سر تتابع وتوالي النبوات والبعثات الرسالية من السماء إلي الأرض وذلك لحاجة الإصلاح المستمرة لأحوال البشرية .

وإذا كان الأنبياء والمرسلون جاءوا جميعاً بالإسلام وفي مقدمة أولوياتهم إصلاح حال العقيدة والأخلاق لخلوص العبادة لله رب العالمين، فان هذه الرسالات أيضاً حملت في طياتها معالجات وحلول لقضايا شائكة وجدت في حياة البشرية واختلفت أزمانها وأماكنها وأشخاصها، وهذا أيضاً يفسر لنا سر اختلاف شرائع الأنبياء والمرسلين ومناهج إصلاحهم وإن اتحدت الأهداف والمقاصد الكلية، قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) (الأنبياء:٢٥)، حيث واجهت نبوة نوح عليه السلام إصلاح العقيدة ومعالجة الانحرافات الفكرية وهي تبعية الآباء والأجداد على غير هدى وبصيرة، قال تعالى: (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا

١ الألوسي ٨/٤٠٦.

٢ / البحر المحيط للأندلسي،٢/ ١٥٤.

٣ / (محاسن التأويل للقاسمي، ١/ ٢٥٢).

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) (الأعراف:٧٠)، وقال تعالى: (قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا) (نوح٢١-٢٤). وواجهت نبوة إبراهيم عليه السلام، طغيان الضلال الشعبي الجماعي وطغيان الملك البشري المتأله عند النمرود بن كنعان، قال تعالى:(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (البقرة: ٢٥٨)، وواجهت نبوة لوط عليه السلام انحرافاً اجتماعياً جماعياً في الفطرة الإنسانية وهو إتيان الذكران من العالمين، قال تعالى:(كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ) (الشعراء:١٦٦-١٦٥). وواجهت نبوة شعيب عليه السلام ظاهرة اقتصادية وهي ظاهرة الغش والتطفيف في الميزان، والمكيال وأكل أموال الناس بالباطل، وإضاعة الأمانات، قال تعالى:(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (الشعراء:٥٨)، وواجهت نبوة كليم الله موسى وأخيه هارون عليهما السلام ظاهرة الاستبداد والطغيان السياسي العظيم الذي مثله فرعون مصر ووزيره هارون والملأ من حاشيته ورجاله ومساعديه الفاسدين الذين استخفهم فرعون فاتبعوه حمية وإمعة ورهبة، فأوردهم دار البوار، حين صور لهم نفسه إلهاً وملكاً لا يقهر، قال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢٣) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ) (غافر:٢٤-٢٣)، وقال فرعون في صلف وتجبر:(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ) (غافر:٣٦-٣٧) ، فيا عجبي من إله يأكل ويشرب و يتغوط ! ، وانشغلت نبوتا داود وابنه سليمان- عليهما السلام بعد التوحيد- بالعدل ونزاهة القضاء، والفصل بين الخصوم بعدل ونزاهة وأمانة، (وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

(٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ) (الأنبياء:٧٩-٧٨)، ولعلها من أعظم الأمانات التي أمر الله بتحقيقها في حياة الناس، لأن العدل أساس الحكم ولا تقوم الحياة إلا به، ولا يحصل الأمن الاجتماعي، ولا الاستقرار السياسي، ولا النماء الاقتصادي، ولا يكون الشهود الحضاري، إلا به. ولذلك تدول دولة الكفر والشرك ما أقامت العدل، وتنهار وتزول دولة الإسلام الظالمة المستبدة، وإن رفعت الإسلام لها شعاراً، وأذنت به على رؤوس الأشهاد ليلاً ونهاراً، لأن نصر الله لا يتحقق إلا بالعدل، وتمكين الله لعباده في الأرض لا يكون إلا بإقامته، وتبديل الحياة من الأمن إلى الخوف، والسلام الاجتماعي، والاستقرار الاقتصادي، والنهوض الحضاري، لا تتحقق هذه المعاني كلها إلا بتحقيق العدل، والاستقامة على توحيد الله وعبادته.

ثم جاءت نبوة خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم، شاملة وكاملة ومهيمنة ومعنية بأوجه الإصلاح كلها، مستغرقة لمعانيه، ومعممة لفلسفة تنزيله، داعية إلى بقائه واستمراره، مؤكدة بشدة على حيويته وأهميته، قال تعالى: (قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَآ إلهكم إله وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا) (الكهف : ١١٠)، وقوله: (قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَآ إلهكم إله وَاحِدٌ فاستقيموا إِلَيْهِ واستغفروه) (فصلت : ٦) .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

المبحث الثالث

التعريف المنهجي للإصلاح وخصائصه

المطلب الأول: أشكال الإصلاح وأنماط التغيير:

ويقول د.صبري محمد خليل في مفهوم الإصلاح:» ومرجع تعدد تعريفات مفهوم الإصلاح على الوجه السابق بيانه هو تعدد الزوايا التي ينظر منها للمفهوم، وبالتالي فإن العلاقة بين هذه التعريفات هي علاقة تكامل لا تناقض. والتعريف الذي نرجحه لمفهوم الإصلاح منظور إليه من زاوية منهجية، هو تعريفه بأنه: تغيير تدريجي جزئي سلمي».[1] ومن أدلة الإصلاح كتغيير تدريجي جزئي سلمي؛ قوله صلى الله عليه وسلم:(من رأى منكم منكَرا فليغيّره بيدِه فَإن لمْ يسْتطعْ فَبلِسانه فَإن لم يسْتطعْ فَبقَلبِه وَذلك أَضعف الإيمانِ)[2].ويأخذ الإصلاح كنمط للتغيير أشكال عدة أهمها:

١- التقويم الذي عبر عنه أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) بقوله: (إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني)[3]. والتقويم يعبر عن موقف نقدي قائم على أخذ وقبول الصواب، ورد ورفض الخطأ، فهو نقد للسلطة لتقويمها أي بهدف الكشف عن أوجه قصورها عن أداء دورها.[4]

٢- النصح، لقوله صلى الله عليه وسلم: (الدين النصيحة، قيل: لمن يا رسول الله !؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم)[5]. يقول الباقلاني بعدما ذكر فسق الإمام و ظلمه: «...بل يجب و عظه و تخويفه، و ترك طاعته في شيء ممّا يدعو إليه من معاصي الله»[6].

المطلب الثاني: خصائص الإصلاح:

إن الإصلاح لا يمكن أن يتم جملة واحدة، وإنما يتم مرحلة مرحلة و بالتدرج، لذلك يجب على دعاة الإصلاح ألا يستعجلوا النتائج،وعليهم أن يضعوا في حسابهم خصائص الإصلاح

---

١ / د.صبري محمد خليل/ أستاذ الفلسفة بجامعه الخرطوم، معنى الاصلاح، sabri.khalil30@yahoo.com.

٢ / مسلم في الصحيح،باب بَيَانِ كَوْنِ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنَ الإِيمَانِ، رقم(١٨٥)، وابن ماجة في السنن،باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم(٤٠١٣).

٣ / تاريخ الكامل لابن الأثير،٢/ ٣٦١.

٤ / معنى الإصلاح، د.صبري محمد خليل/ أستاذ الفلسفة بجامعه الخرطوم، sabri.khalil30@yahoo.com.

٥ / البخاري، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم الدين النصيحة، رقم(٥٦)، ومسلم، باب بيان أن الدين النصيحة، رقم(٢٠٥).

٦ / التمهيد للباقلا ني ، ص١٨٦.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

التي تتمثل في الآتي:

أولاً: التدرج: ويعني أن الإصلاح تغيير تدريجي، لا يتم بالقفز على الواقع، بل بالانتقال به مما هو كائن، إلى ما هو ممكن، استناداً إلى قاعدة التدرج التي قررها الإسلام، وهنا يجب التمييز بين نوعين من أنواع التدرج:

أ/ التدرج في التشريع: أي التدرج في بيان درجة الإلزام في القاعدة الشرعية المعينة :(من الإباحة إلى الكراهة إلى التحريم أو من الندب إلى الوجوب...)، والتدرج في بيان درجة الإلزام في شرب الخمر من الإباحة، عند قوله تعالى: (وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا) (النحل: ٦٧)، إلى الكراهة عند قوله تعالى:(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) (البقرة: ٢١٩)، و قوله تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا) (النساء: ٤٣)، ثم إلى التحريم عند قوله تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (المائدة: ٩٠)، غير أن هذا النوع من أنواع التدرج قد انتهى بختم النبوة بانتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى.

ب/ التدرج في التطبيق: أي التدرج في تطبيق القاعدة الشرعية وليس في بيان درجة الإلزام في القاعدة الشرعية، ومن أدلته قول عمر بن عبد العزيز لابنه: (إنّ قومك قد شدّوا وهذا الأمر عقدة عقدة، وعروة عروة، ومتى أريد مكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم، لم آمن أن يفتقوا علي فتقاً تكثر فيه الدماء، والله لزوال الدنيا أهون علي، من أن يراق في سببي محجمة من دم، أو ما ترضى أن لا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعة، ويحيي فيه سنة، حتى يحكم الله بيننا، وبين قومنا بالحق وهو خير الحاكمين)[1]. وهذا دليل عملي على التدرج في الإصلاح الهادي دون إراقة دماء بسبب الثورات والخروج على الحكام.

ثانياً: الموقف النقدي (التقويمي): الذي يتجاوز كل من موقفي الرفض والقبول المطلقين، إلى موقف قائم على أخذ وقبول ما هو صواب، ورد ورفض ما هو خطأ. وقد دعى الإسلام إلى الالتزام بالموقف النقدي، بعد تقييده بمعايير موضوعية مطلقة، هي النصوص اليقينية الورود القطعية الدلالة، قال تعالى: (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ

١ / حلية الأولياء ٥/٢٨٢- صفة الصفوة لابن الجوزي ٢/١٢٨ .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

أَحْسَنَهُ) (الزمر :١٨). وقال صلى الله عليه وسلم:(لا يكن أحدكم إمعة، يقول أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت، بل وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم)[1]، أما النقض فهو ما يقابل الرفض المطلق.

المطلب الثالث: علاقة الإصلاح بمفهوم الثورة:

نجد هنا مذهبين في تحديد طبيعة العلاقة بين المفهومين: أولاً:مذهب الجمع: ويقوم على الجمع بين الإصلاح (كنمط تغيير تدريجي جزئي)؛ والثورة (كنمط تغيير فجائي كلي) على وجه يرفع التعارض (التناقض) بينهما، من خلال تقديم الإصلاح على الثورة زمانياً وقيمياً، وذلك باعتبار أن الإصلاح هو نمط التغيير الأصل، وبالتالي لا بد من الالتزام به، ما دامت تتوافر أمكانية الالتزام به، بينما الثورة هي نمط التغيير الفرع، وبالتالي فإن الالتزام بها لا يكون إلا في حالة عدم توافر أي إمكانية للإصلاح من خلال النظام القانوني المعين وانتهاءً: أي أنه بمجرد تحقق الثورة كأداة لإزالة عقبة أمام الإصلاح ممثلة في النظام القانوني المعين يتم الرجوع إلى الإصلاح كنمط تغيير أصلي، ومرجع أن الإصلاح هو نمط التغيير الأصل في منهج التغيير الإسلامي، أنه تعبير عن اضطراد التغيير كسنة إلهية، فهو يتصف بالاستمرارية، كما أنه تعبير عن المشاركة كسنة إلهية تضبط العلاقة بين الناس، مضمونها تبادل العلم بمشكلة مشتركة ثم تبادل المعرفة بحلولها المحتملة؛ ثم تعيين القرار الذي يرى كل مشارك أنه الحل الصحيح للمشكلة، وقد عبر القرآن عن المشاركة بمصطلحات إيجابية كالتأليف بين القلوب، قال تعالى:(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (آل عمران: ١٠٣)، والتعاون المثمر، قال تعالى:(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)(المائدة:٢) و الموالاة بين أهل الإيمان، قال تعالى:(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) (التوبة:٧١) . أما مرجع أن الثورة هي نمط التغيير الفرع في منهج التغيير الإسلامي، فلأنه يجئ كمحصلة لمحاولة تعويق فاعلية سنة التغيير الإلهية. فهو يتصف بالمرحلية (ذو الطبيعة الانتقالية)، ولأنه تعبير عن الصراع الذي يوجد عند تعطل فاعلية المشاركة كسنة إلهية، والذي هو عقبة أمام التطور الاجتماعي من خلال حل المشاكل المتجددة وغايته إلغائه. وقد اتفق أهل السنة على وجوب الإصلاح(التقويم والنصح والترشيد..) كنمط تغيير، ولكنهم اختلفوا

[1] / مسلم، باب تحنيك المولود، رقم(٥٧٣٧)، الترمذي، باب ما جاء في العجلة والتأني، رقم(٢٠٧٥).

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

في الثورة كنمط للتغيير إلى مذهبين :المذهب الأول: يمنع الثورة على الحاكم الجائر، يقول الإمام ابن تيمية: (والصبر على جور الأئمة أصل من أصول أهل السنة والجماعة)[1].

المذهب الثاني: يرى إيجاب الثورة على الحاكم الجائر، ذكر ابن أبي يعلى في ذيل طبقات الحنابلة عن الإمام أحمد في رواية: (من دعا منهم إلى بدعة فلا تجيبوه ولا كراهة، وإن قدرتم على خلعه فافعلوا)[2]. ومن علماء الحنابلة الذين ذهبوا إلى القول بخلع الجائر، ابن رزين، وابن عقيل، وابن الجوزي[3]. ومن الواضح أن كل مذهب من هذين المذهبين، قد أسسه أصحابه بناءً على تقديرهم بتوافر إمكانية الإصلاح في النظام القانوني المعين أو عدم توافرها، فالمذهب الأول أسسه أصحابه بناءً على تقديرهم بتوافر إمكانية الإصلاح في النظام المعين، بينما المذهب الثاني أسسه أصحابه بناءً على تقديرهم عدم توافر إمكانية الإصلاح في النظام المعين، وبناءً على ذلك فإن المذهب الأول (منع الثورة). ويصح الاستدلال به في حالة توافر إمكانية الإصلاح في النظام المعين. أما المذهب الثاني القائل: ب(إيجاب الثورة)؛ فيصح الاستدلال به في حالة عدم توافر إمكانية الإصلاح في النظام المعين. يقول تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ) (يونس: ٨١)، ويقول تعالى:(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) (الإسراء:١١٧)، يقول الطبري في تفسيره: يقول تعالى ذكره: (وما كان ربك يا محمد ليهلك القرى التي أهلكها، التي قص عليك نبأها ظلماً وأهلها مصلحون في أعمالهم، غير مسيئين، فيكون إهلاكه إياهم مع إصلاحهم في أعمالهم وطاعتهم ربهم؛ ظلماً. ولكنه أهلكها بكفر أهلها بالله، وتماديهم في غيهم، وتكذيبهم رسلهم، وركوبهم السيئات)[4].

ثانياً: مذهب الإفراد: وهو المذهب القائل: بأن الإصلاح لا يكون إلا بالثورة والخروج على الحاكم، وهناك مذهب الإفراد ويتضمن العديد من المذاهب التي تتطرف في التأكيد على نمط تغيير معين (الإصلاح أو الثورة) لدرجة إلغاء نمط التغيير الآخر، ومن أمثلتها مذهب الخوارج، الذي يستند إلى مفهوم الخروج والتطرف في التأكيد على الثورة وهو مبدأ « الخروج على السلطان الجائر» كنمط تغيير، لدرجة إلغاء نمط التغيير الآخر أي الإصلاح، وآية هذا أنهم لم يميزوا في خروجهم بين نظم قانونية شرعية وأخرى غير

---

١ / مجموع الفتاوى ، ٢٨.

٢ / طبقات الحنابلة، لأبي يعلى الحنبلي، شبكة مشكاة الإسلامية، http://www.almeshkat.net

٣ / الإنصاف للماور دي، ١٠ ٣١١.

٤ / تفسير الطبري، (١٥/٥٣٠).

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

شرعية، مثال للأولى: خلافة على ابن أبى طالب»رضي الله عنه»، ومثال للثانية كثير من خلفاء الدولة الأموية) ، فهم لم يميزوا بين التمرد والثورة .ومن أمثلتها أيضاً قطاع من العلماء يرى شرعية السلطة التي لم تجئ من خلال بيعة صحيحة، باعتبارها عقد اختيار لم يدخله إجبار، وتستبد بالسلطة دون الجماعة، بدلاً من أن تكون نائباً ووكيلاً عنها، لها حق تعيينها ومراقبتها وعزلها، ويرفض التغيير بأنماطه المختلفة (الإصلاح والثورة) ، لذا أطلق عليهم اسم علماء السلطان. ويستند هذا القطاع من العلماء في موقفه هذا إلى عدد من الأدلة أهمها النصوص الدالة على وجوب طاعة أولى الأمر، كقوله تعالى:(وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) (النساء:٥٩) ، غير أن طاعة أولي الأمر في الآية وغيرها من النصوص ليست مطلقة كما يلزم من مذهبهم، بل هي مشروطة بعدم معصية الله تعالى، كما في الحديث:(لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)[1] يقول الطوفي الحنبلي: فـ(الأمر في هذه الآية عام مخصوص بما إذا دعوا الناس إلى معصية أو بدعة لا تجوز طاعتهم للحديث: « إنما الطاعة في المعروف ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[2]. وقد امتنع كثير من أئمة السلف من إجابة الخلفاء إلى المنكر والمفاسد والبدع. وهم في ذلك قدوة، والآية المذكورة حجة لهم). والقول بالطاعة المطلقة للحاكم يتنافى مع مفهوم التوحيد والذي يلزم منه إسناد الحاكمية – السيادة (السلطة المطلقة) لله تعالى. وهو مذهب مخالف للإسلام. وهذا الموقف في تصورنا يفارق موقف أهل السنة بمذهبيهم، ويقارب موقف فرقه المرجئة المبتدعة، والتي تفصل بين الإيمان والعمل، ويترتب على مفهومها في الإرجاء رفض التغيير بأنماطه المتعددة(الإصلاح والثورة)[3].

١ / الترمذي، باب ما جاء في لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق،رقم(١٧٥٩).

٢ / الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية٢/٢٨.

٣ /انظر: بحث بعنوان: معنى الإصلاح في القرآن، للدكتور صبري محمد خليل، جامعة الخرطوم، drsabrikhalil.wordpress.com).

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

المبحث الرابع: مجالات الإصلاح في القرآن الكريم

المطلب الأول: الإصلاح الفكري العقدي:

إن القرآن الكريم كله جاء لإصلاح الحياة الإنسانية، بدءًا من إصلاح المعتقدات والأفكار، ومروراً بكل الأنماط السلوكية، فالدعوة إلى توحيد الله عز وجل وإخلاص العبودية له هي القضية المحورية في دعوات جميع الأنبياء، وهي المرتكز لمعالجة فساد المجتمعات، وأساس الإصلاح، لذلك نرى أن كل رسول أول ما يخاطب قومه يخاطبهم بالتوحيد، يقول تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) (النحل:٣٦)، ويقول سبحانه:(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) (الأنبياء:٢٥)، (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ) (المؤمنون:٢٣)، (وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ) (الأعراف:٦٥)، (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) (الأعراف:٧٣)، ((وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) (الأعراف:٨٥)، ((قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) (الأنعام:١٩). وفي كل مكان، وهكذا يتوحد الميزان في يد المسلم على مدار التاريخ كله؛ وترتفع القيم في شعوره عن عصبية الجنس واللون واللغة والوطن، والقرابات الحاضرة أو الموغلة في بطن التاريخ، ترتفع فتصبح قيمة واحدة، هي قيمة الإيمان يحاسب بها الجميع، ويقوّم بها الجميع، قال تعالى:(كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ (١١١))(الشعراء:١٠٥-١١١) .هذه هي دعوة نوح التي كذبه فيها قومه وهو أخوهم وكان الأليق بالأخوة أن تقود إلى المسالمة والاطمئنان والإيمان والتصديق، ولكن قومه لم يأبهوا لهذه الصلة، ولم تلن قلوبهم لدعوة أخيهم نوح إذ قال لهم:﴿ ألا تتقون؟ ﴾، وتخافون عاقبة ما أنتم فيه؟ وتستشعر قلوبكم خوف الله وخشيته؟ وهذا التوجيه إلى التقوى مطرد في هذه السورة، فهكذا قال الله عن فرعون وقومه لموسى وهو يكلفه التوجه إليهم، وهكذا قال نوح لقومه، وهكذا قال كل رسول لقومه من بعد نوح: (إني لكم رسول أمين) (الشعراء:١٠٧). لا يخون ولا يخدع ولا يغش، ولا يزيد شيئاً أو ينقص شيئاً مما كلفه من التبليغ . (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) (الشعراء:١١٠). وهكذا يعود إلى تذكيرهم بتقوى الله، ثم يطمئنهم من ناحية الدنيا وأعراضها، فما له فيها من أرب بدعوتهم إلى الله، وما يطلب منهم

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

أجراً جزاء هدايتهم إليه، فهو يطلب أجره من رب الناس الذي كلفه دعوة الناس، و عدم طلب الأجر دائماً ضرورياً للدعوة الصحيحة، تمييزاً لها مما عهده الناس في تجارة من استغل الدين لسلب أموال العباد، فأما دعاة الحق دائماً متجردين، لا يطلبون أجراً على الهدى، فأجرهم على رب العالمين، ويربط بين الإيمان والتقوى من جهة، ومن جهة أخرى يربط بين التقوى والإصلاح، ليؤكد على تحقيق الإصلاح حيث تتحقق التقوى ويكون حيث يكون الإيمان،(وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) (الأنعام:٤٨)، وهنا يكرر عليهم طلب التقوى والطاعة، بعد اطئمنانهم من ناحية الأجر والاستغلال:(فَاتَقُوْا اللّه وَأَطِيْعُوْنِ)، ولكن القوم يطلعون عليه باعتراض عجيب، وهو اعتراض مكرور في البشرية مع كل رسول:(قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ؟) (الشعراء: ١١١)، وهم يعنون بالأرذلين الفقراء، وهم السابقون إلى الرسل والرسالات، وإلى الإيمان والاستسلام، لا يصدهم عن الهدى كبرياء فارغة، ولا خوف على مصلحة أو وضع أو مكانة، فقد بعث الله تعالى نبيه هوداً عليه السلام إلى قومه عاد، وكانت دعوته إليهم أن يوحدوا الله، قال تعالى:(كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) ... إلى قوله تعالى وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٤٠) (الشعراء: ١٢٣-١٤٠)، يقول الرازي في تفسير هذه الآية: «ذكر الأمور التي تكلم فيها هود عليه السلام مع قومه وهي ثلاثة: فأولها: قوله:(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءايَةً تَعْبَثُونَ) (الشعراء:١٢٨)، والريع: هو المكان المرتفع، وثانيها: قوله:(وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ) (الشعراء:١٢٩)، المصانع مآخذ الماء، وقيل القصور المشيدة والحصون (لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ) (الشعراء:١٣٠)، ترجون الخلد في الدنيا أو يشبه حالكم حال من يخلد، واعلم أن الأول إنما صار مذموماً لدلالته إما على السرف، أو على الخيلاء، والثاني : إنما صار مذموماً لدلالته على الأمل الطويل والغفلة عن أن الدنيا دار ممر لا دار مقر، وثالثها : قوله :(وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ) (الشعراء:١٣١)، بين أنهم شاركوا الإله في ثلاثة أمور: اتخاذ البنايات العالية، يدل على حب العلو، واتخاذ المصانع يدل على حب البقاء، والجبارية تدل على حب التفرد بالعلو، وهذه صفات الإلهية، وهي ممتنعة الحصول للعبد، فدل ذلك على أن حب الدنيا قد استولى عليهم بحيث استغرقوا فيه وخرجوا عن حد العبودية وحاموا حول ادعاء الربوبية، وكل ذلك ينبه على أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وعنوان كل كفر ومعصية، ثم لما ذكر هود عليه السلام هذه الأشياء قال: (فاتقوا

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

اللّه وَأَطِيعُونِ) (الشعراء:١٣٢)، زيادة في دعائهم إلى الآخرة وزجراً لهم عن حب الدنيا والاشتغال بالسرف والحرص والتجبر، ثم وصل بهذا الوعظ ما يؤكد القبول وهو التنبيه على نعم اللّه تعالى عليهم بالإجمال أولاً؛ ثم التفصيل ثانياً؛ فأيقظهم عن سنة غفلتهم عنها حيث قال:(أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ) (الشعراء:١٣٥)، ثم فصلها من بعد بقوله:(أَمَدَّكُمْ بِأَنعامٍ وَبَنِينَ وجنات وَعُيُونٍ إِنّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) (الشعراء: ١٣٤-١٣٥)، فبلغ في دعائهم بالوعظ والترغيب والتخويف والبيان النهاية»[١]. (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) (الأعراف:٧٣-٧٤)، يقول سيد قطب: «ولا يذكر السياق هنا أين كان موطن ثمود، ولكنه يذكر في سورة أخرى أنهم كانوا في الحجر - وهي بين الحجاز والشام، ونلمح من تذكير صالح لهم، أثر النعمة والتمكين في الأرض لثمود، كما نلمح طبيعة المكان الذي كانوا يعيشون فيه، فهو سهل وجبل، وقد كانوا يتخذون في السهل القصور، وينحتون في الجبال البيوت، فهي حضارة عمرانية واضحة المعالم في هذا النص القصير، وصالح يذكرهم استخلاف اللّه لهم من بعد عاد، وإن لم يكونوا في أرضهم ذاتها، ولكن يبدو أنهم كانوا أصحاب الحضارة العمرانية التالية في التاريخ لحضارة عاد، وأن سلطانهم امتد خارج الحجر أيضاً. وبذلك صاروا خلفاء ممكنين في الأرض، محكمين فيها، وهو ينهاهم عن الانطلاق في الأرض بالفساد، اغتراراً بالقوة والتمكين، وأمامهم العبرة ماثلة في عاد الغابرين!»[٢]. فقد ورث المجتمع الثمودي الخلافة والتمكين في الأرض من بعد مجتمع عاد، وورث أيضاً أمراض قوم عاد وعللهم الاجتماعية، فجاء الخطاب القرآني ليعالج آفة الطغيان المادي، والاغترار بالقوة، والافتتان بزهرة الحياة الدنيا في كل المجتمعات على مر الأزمان.

المطلب الثاني: الإصلاح الأخلاقي:

الإصلاح المطلوب لا يتحقق إلا بدخول الإيمان في القلوب، مع إعادة تشكيل العقل، وتقويته في مواجهة الهوى، والعمل الدائم على زيادته حتى يسيطر تماماً على المشاعر القلبية، يقول الهلالي في القرآن:«وطريقة القرآن أن يعيد تشكيل العقل ويقوم ببناء اليقين الصحيح فيه من خلال مخاطبته له بأساليب شتى مما يؤدي إلى إقناعه بما يحمل من

---

١ / تفسير الرازي، الإمام فخر الدين محمد الرازي، بيروت، دار القلم،(د.ت)٢/١٥٨.

٢ / في ظلال القرآن، سيد قطب، بيروت، دار الشروق، ١٩٨٨م،٣/١٣١٣.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

أفكار، فتنتقل تلك الأفكار بسهولة ويسر إلى منطقة اللاشعور...»[1]. فالقرآن في كل سورة من آياته يخاطب العقل والقلب معاً، ويعمل على إحياء التجاوب بين العقل والقلب معاً، لأن ذلك الذي يحدث الإصلاح والتغيير في عالم النفس، لأن الإصلاح أول يبدأ بإصلاح نفس الفرد، فبصلاحها يكون صلاح المجتمع، وبصلاحها أيضاً يكون صلاح المؤسسة، وأول واجب فرض على الحاكم المسلم هو أن يقيم نظام الحياة الإسلامي كاملاً غير منقوص، وان يرفع من قدر الخير وينشره، ويقضي على الشرور ويزيلها طبقاً لمعيار الإسلام الأخلاقي وقد أوضح القرآن هدف الدولة فقال: (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ) (الحج:٤١)، وواجب كل فرد في المجتمع المسلم أن يقول كلمة الحق، ويحمي الخير ويذب عنه، وأن يبذل ما في وسعه لمنع المنكر والضرب على يد الباطل بقدر إمكانه، وهذا ما بُعث به الأنبياء، قال تعالى: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ) (التوبة: ٧١)، وقد دعا القرآن الكريم إلى فضائل الأخلاق وحذر من الرذائل، فالقرآن يدعو إلى العفة والطهر، ودعا إلى الكرم والبذل والإنفاق والسخاء، وأعلى من قيم الحب والعطف والرحمة، وأمر بالبر والإحسان والصدق وغيرها من مكارم الأخلاق، يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) (التوبة: ١١٩)، وفي المقابل حذر القرآن الكريم من قبائح الأخلاق ورذائل الأعمال، فقد نهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، وذم الشح والبخل والإقتار، وأنكر الظلم والاستبداد والفساد في الأرض والعلو فيها، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (النحل:٩٠)، كما حذر من الكذب والخيانة والفسق، قال تعالى: (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) (القصص:٨٣)، ونماذج ذلك كثيرة في القرآن الكريم: فهاهو ذا نبي الله لوط عليه السلام يواجه فساداً وتحللاً أخلاقياً لم يسبق للبشرية أن عملته من قبل، وهو ما يسمى بالمثلية الجنسية، والقرآن يسميه فاحشة، وكانت لنبي الله لوط عليه السلام صولات وجولات في التصدي لإصلاح قومه من هذا النوع من الفساد، قال تعالى: (وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (٨١)) (الأعراف: ٨٠-٨١). والإسراف الذي يدمغهم به لوط هو الإسراف في تجاوز منهج الله الممثل في الفطرة السوية، والإسراف

١ /العودة إلى القرآن، مجدي الهلالي، ط١، مصر، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ٢٠٠٣م، ص٦٦.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

في الطاقة التي وهبهم الله إياها، لأداء دورهم في امتداد البشرية ونمو الحياة، فإذا هم يريقونها ويبعثرونها في غير موضع الإخصاب، فهي مجرد ﴿ شهوة ﴾ شاذة، لأن الله جعل لذة الفطرة الصادقة في تحقيق سنة الله الطبيعية، في الزواج المشروع، فإذا وجدت نفس لذتها في نقيض هذه السنة، فهو الشذوذ إذن والانحراف والفساد الفطري، قبل أن يكون فساد الأخلاق، ولا فرق في الحقيقة، فالأخلاق الإسلامية هي الأخلاق الفطرية، بلا انحراف ولا فساد، ولقد أهتم الإسلام بالأخلاق لأنها أمر لا بد منه لدوام الحياة الاجتماعية وتقدمها من الناحيتين المادية والمعنوية، فالإنسان- دائماً- بحاجة ماسة إلى نظام خلقي يحقق حاجته الاجتماعية، ويحول دون ميوله ونزعاته الشريرة ويوجهه إلى استخدام قواه في مجالات يعود نفعها عليه وعلى غيره. إن الإسلام يدرك تمام الإدراك ماذا يحدث لو أهملت المبادئ الأخلاقية في المجتمع، وسادت فيه الفواحش، والخيانة والغش، والكذب والسرقة، وسفك الدماء، والتعدي على الحرمات والحقوق بكل أنواعها، وتلاشت المعاني الإنسانية في علاقات الناس، فلا محبة ولا مودة، ولا نزاهة ولا تعاون، ولا تراحم ولا إخلاص، إنه بلا شك سيكون المجتمع جحيماً لا يطاق، ولا يمكن للحياة أن تدوم فيه، لأن الإنسان بطبعه محتاج إلى الغير، وبطبعه ينزع إلى التسلط والتجبر والأنانية والانتقام، قال تعالى:(وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ) (البقرة: ٢٠٥)، لذا جاء الإسلام بأسس ومعايير يتحتم علينا السير وفقاً لها وهي ليست أسساً ومعايير وضعية، وإنما وحي يوحى على هيئة أوامر ونواه ومباحات ومحظورات فمن أطاع الله أثابه ومن عصاه عاقبه، وتمتاز الأخلاق الإسلامية بأنها واقعية عملية وليست مثالية، تؤكد حرية الإنسان واختياره ومسئوليته عن فعله، وتتميز أيضاً بأنها إيجابية شاملة بعيدة عن الانحراف والغلو، وصالحة لكل زمان ومكان، شرع الإسلام أحكاماً لحماية المجتمع من التردي الخلقي الذي يؤدى إلى الهلاك، وذلك واضح في العقوبات الحدية و التعزيرية، كما استكمل القرآن طرق الإلزام وأنواعها، وسلط الوازعات على عقل المؤمن ثم على قلبه وضميره، ونفسه وغرائزه، وطباعه وجسده، فانتزع الدواء من مكمن الداء، وشمل بهذا الإلزام الكبائر والصغائر، والأخلاق والآداب، وجعل الفرد رقيباً على نفسه وعلى المجتمع، وجعل المجتمع رقيباً على الفرد و هذه الالزامات تنحصر في الآتي :[1] أولها الدين: حيث أن الدين يدل الإنسان على الخير، والأخلاق الحميدة، قال تعالى:(هُوَ

١ /الأخلاق في الإسلام،موقع الإسلام،ص١٨. http://www.al-islam.com

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

الَّذي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (الجمعة:٢-٣). وثانيها العقل:فهو الذي يرشد الإنسان إلى الأخلاق الحميدة السليمة واجتناب الرذائل وقد ذكر القرآن الكريم البراهين العقلية، والحكمة في كثير من العبادات والمعاملات، من ذلك قوله تعالى:(يَاأَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (المائدة:٩٠)، وقال تعالى:(إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ) (المائدة: ٩١)، وقوله تعالى:(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (البقرة:٤٤). وثالثها: الإلزام بوازع الترهيب والترغيب: حيث سلكت التربية الإسلامية في الإلزام بهذا الوازع طرقاً كثيرة منها: الترهيب بانتقام الله في الدنيا من العاصي الظالم، قال تعالى:(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) (إبراهيم: ٧)، والترغيب بما عنده سبحانه وتعالى، قال تعالى:(فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (السجدة : ١٧) ، وقال تعالى:(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (الأعراف : ٩٦). ورابعها: الإلزام بوازع السلطان:إن بعض الناس لا ينفع معهم وازع العقل، ولا وازع الترغيب والترهيب، فكان لا بد من وازع أعظم في نفوسهم هو وازع السلطان، وهو العقوبات التي فرضتها الشريعة، وفوض أمرها إلى الحاكم، يقول الله تعالى:(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (المائدة: ٣٨)، ويقول تعالى:(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ) (النور : ٢)، فاجتماع الوازعات كلها في الإسلام؛ استكمال لطرق الإلزام لكل من سول له الشيطان الهرب من أمر الطاعة والالتزام، والمسلم كل ما ثبت على الأخلاق كانت آثار ذلك: تخليص المجتمعات من ظاهرة القلق والإضرابات التي تسودها، وتمكين الأواصر الإنسانية بالود والرحمة بينهما. والتفريق بين الأخلاق والتقاليد، فثبات الأخلاق جزء من الدين، مصدرها رباني، وهدفها إنساني؛ أما التقاليد فمن طبيعتها أن تتغير كلما تغيرت مبررات وجودها، ولكن ليس بالإمكان تغير الأخلاق، لأنها تقوم على أسس ثابتة كالحق والعدل والخير، والثبات في الأخلاق يبعث الطمأنينة في حياة الفرد، وفي حياة المجتمع، وبدون الاستقامة والثبات على الحق تفوت الثمرة، ولا يصل المسلم إلى الغاية .

إن الأخلاق في الإسلام منهج حياة، وهو منهج ذو خصائص متميزة: من ناحية التصور

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

الاعتقادي، ومن ناحية الشريعة المنظمة لارتباطات الحياة كلها، ومن ناحية القواعد الأخلاقية، التي تقوم عليها هذه الارتباطات، ولا تفارقها، سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية، وهو منهج جاء لقيادة البشرية كلها، فلا بد أن تكون هناك جماعة من الناس تحمل هذا المنهج لتقود به البشرية، ومما يتناقض مع طبيعة القيادة - كما أسلفنا - أن تتلقى هذه الجماعة التوجيهات من غير منهجها الذاتي، وجاء هذا المنهج لخير البشرية يوم جاء، ولخير البشرية يدعو الدعاة لتحكيم هذا المنهج اليوم وغداً، بل الأمر اليوم ألزم، والبشرية بمجموعها تعاني من النظم والمناهج التي انتهت إليها ما تعاني، وليس هناك منقذ إلا هذا المنهج الإلهي، الذي يجب أن يحتفظ بكل خصائصه كي يؤدي دوره للبشرية وينقذها مرة أخرى، والذي يراجع التاريخ بعد ذلك - منذ اليوم الذي استعلن فيه الإسلام بالمدينة، وقامت له دولة - إلى اللحظة الحاضرة، يدرك كذلك مدى الإصرار العنيد على الوقوف لهذا الدين وإرادة محوه من الوجود! ولقد استخدمت الصهيونية والصليبية في العصر الحديث من ألوان الحرب، والكيد والمكر أضعاف ما استخدمته طوال القرون الماضية لتدمير نظام الأمة الأخلاقي، وهي في هذه الفترة بالذات تعالج إزالة هذا الدين بجملته؛ وتحسب أنها تدخل معه في المعركة الأخيرة الفاصلة، لذلك تستخدم جميع الأساليب التي جربتها في القرون الماضية كلها- بالإضافة إلى ما استحدثته منها جملة واحدة.قال تعالى: (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْأَصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) (هود: ٨٨)، فمن شاء أن يصلح هذه الحال فليرد الناس إلى الإسلام وشريعة الإسلام ومنهج الإسلام؛ فيردهم إلى النظافة والطهارة والاستقامة والاعتدال . من شاء الإصلاح فليرد الناس إلى الإسلام لا في هذه الجزئية ولكن في منهج الحياة كلها، إن بيننا اليوم ممن يقولون: إنهم مسلمون! من يستنكر وجود صلة بين العقيدة والأخلاق، وبخاصة أخلاق المعاملات المادية. وحاصلون على الشهادات العليا من جامعاتنا وجامعات العالم . يتساءلون أولاً في استنكار: وما للإسلام وسلوكنا الشخصي؟ ما للإسلام والعري في الشواطئ؟ ما للإسلام وزي المرأة في الطريق؟ ما للإسلام وتصريف الطاقة الجنسية بأي سبيل؟ ما للإسلام وتناول كأس الخمر لإصلاح المزاج؟ ما للإسلام وهذا الذي يفعله « المتحضرون »؟! . فأي فرق بين هذا وبين سؤال أهل مدين:(أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا؟) (هود: ٨٤) . وهم يتساءلون ثانياً، بل ينكرون بشدة وعنف، أن يتدخل الدين في الاقتصاد، وأن تتصل المعاملات بالاعتقاد، أو حتى بالأخلاق من غير اعتقاد . فما للدين والمعاملات

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

الربوية؟ وما للدين والمهارة في الغش والسرقة ما لم يقعا تحت طائلة القانون الوضعي؟ لا بل إنهم يتبجحون بأن الأخلاق إذا تدخلت في الاقتصاد تفسده، وينكرون حتى على بعض أصحاب النظريات الاقتصادية الغربية النظرية الأخلاقية مثلاً ويعدونها تخليطاً من أيام زمان!، فلا يذهبن بنا الترفع كثيراً على أهل مدين في تلك الجاهلية الأولى، ونحن اليوم في جاهلية أشد جهالة، ولكنها تدعي العلم والمعرفة والحضارة، وتتهم الذين يربطون بين العقيدة في الله، والسلوك الشخصي في الحياة، والمعاملات المادية في السوق . . تتهمهم بالرجعية والتعصب والجمود!!!، وما تستقيم عقيدة توحيد الله في القلب، ثم تترك شريعة الله المتعلقة بالسلوك والمعاملة إلى غيرها من قوانين الأرض، فما يمكن أن يجتمع التوحيد والشرك في قلب واحد، والشرك ألوان، منه هذا اللون الذي نعيش به الآن، وهو يمثل أصل الشرك وحقيقته التي يلتقي عليها المشركون في كل زمان وفي كل مكان!.

المطلب الثالث: الإصلاح الاجتماعي:

يبدأ الإصلاح الاجتماعي بإصلاح الفرد ليكون أداة بناء للمجتمع لا معول هدم، يقول تعالى:(إِنَّ اللَّه لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْم حتى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (الرعد:١١) ، ثم يتدرج الإصلاح إلى الأسرة باعتبارها نواة المجتمع، وركيزة بنائه، وأساس صلاحه، فالقرآن الكريم أحاطها بسياج من التشريعات، وحدد لها الحقوق والواجبات، وقدم لمشكلاتها الحلول والمعالجات، والغرض من ذلك كله صلاحها وتنمية جوانب الخير فيها، لأن في صلاحها صلاح المجتمع كله، وفي فسادها فساده، وبين الأسس التي يجب أن تقام عليها الأسرة حتى تكون لبنة صالحة في المجتمع، وهذه الأسس تتمثل في: الرضا والاقتناع وحرية الاختيار، وعدم الإكراه والإجبار والتعسف في اختيار شريك الحياة، لأن العلاقة بين الشريكين قوامها وجود التفاهم والانسجام الذي تتولد عنه المودة والرحمة والعشرة بين الزوجين، والزوج مأمور أيضاً أن يعدل بين زوجاته وأولاده وبناته، والزوجة مأمورة أن تعدل بين أولادها وبناتها لقيام أسرة صالحة مستقرة متماسكة، قال تعالى:(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لتسكنوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً) (الروم : ٢١) ، ومن الأسس التي ينبغي مراعاتها في الحياة الأسرية الشورى لأنها إن لم تترسخ في الأسرة أولاً ويتربى عليها أفرادها لن تترسخ في حياة المجتمع والدولة، وأن تقوم العلاقة بين الزوجين على التكامل والتعاون، لا على الصراع والتناقض، فلكل واحد عمل يؤديه، وأجر يناله، وواجب الأولاد كذلك تجاه الأبوين البر والإحسان والطاعة وخاصة عند الكبر والضعف، وعدم إظهار التذمر والتضجر، يقول تعالى:(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

(الإسراء:٢٣). ويتدرج الإصلاح الاجتماعي بعد ذلك إلى آصرة القربى الممتدة ويعطيها اهتماماً بالغاً بأن يجعل لها حقوقاً يؤديها الفرد؛ وعهوداً ومواثيق يأمر بوصلها ويحذر بالويل والعقاب من يقطعها، يقول تعالى: (الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)، ثم يتجه الإصلاح الاجتماعي بعد ذلك لبناء الجماعة ذات الرسالة و الأمة الموحدة التي تقوم بتحكيم الكتاب وتجاهد من أجله، لتحافظ على هذا البنيان الاجتماعي وتقوم بواجب الإصلاح، قال تعالى: (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (آل عمرن:١٠٤)، ثم يتدرج إصلاح المجتمع إلى وحدة أعلا هي الزوجية، يحفها القرآن الكريم بضوابط وتشريعات تضمن لها قوة الرباط، وطهر العلاقة، وتسودها المحبة والرحمة، قال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لتسكنوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً) (الروم : ٢١)، فكون الأزواج من الأنفس كناية على قرب الصلة وحميميتها، والسكون إليها فهي راحة وسكن وهدأه أعصاب وراحة في البال بعد عناء، ثم هي مودة وحب، وهي رحمة البنين والحفدة وامتداد النفس واستمرارها. ولم يقف الإصلاح الاجتماعي في الإسلام عند هذا الحد بل يمتد إلى درجات أعلى، ليصطلح مع العالمين، بالتعارف والتواصل، ويعطيهم أساساً أرفع للتفاضل، يقول تعالى: (يَاأَيُّهَا النَاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأنثى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لتعارفوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللّه أَتْقَاكُمْ) (الحجرات : ١٣)، والقرآن يدعو أيضاً إلى الحوار بالحسنى، ومنع الحروب، ويضع من التوجيهات ما يضيق به فرص الاقتتال بين الناس، ويدعو الناس جميعاً إلى السلام، يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً) (البقرة:٢٠٨). وبهذا التصور الشامل لا يؤسس المنهج القرآني للمجتمع المسلم وإصلاحاته المختلفة، بل هو يضع الأساس لإصلاح المجتمع الدولي المتسالم المتعارف لا الظالم المتناحر.

المطلب الرابع: الإصلاح الاقتصادي:

يتعرض السياق القرآني لإقامة قواعد النظام الاقتصادي الذي يريد الإسلام أن يقوم عليها المجتمع المسلم؛ وأن تنظم بها حياة الجماعة المسلمة، إنه نظام يقوم على ثلاثة أركان هي[١]:

الأول: الملكية المزدوجة: وتعني ما يمكن أن يتملكه الفرد، وما يمكن أن تتملكه الجماعة، بما يحقق التوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة من غير تعارض بين المصلحتين، أما لو حصل التعارض؛ قدم الإسلام مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد،

١ /النظام الاقتصادي في الإسلام، مسفر بن علي القحطاني، ص ١٤٢.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

كقضية السمسرة والتي ترفع السعر أعلى من سعره الحقيقي، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم:(لا يبيع حاضر لباد)[1]، وقوله صلى الله عليه وسلم في منع هذه الممارسة:(لا تلقوا الركبان)[2]، كما أمر الإسلام بإخراج الطعام من يد المحتكر كما أجاز ذلك بعض الفقهاء.[3] حتى لا يتلاعب ضعاف النفوس بقوت الشعب.وحدد نظام الإسلام الاقتصادي مجالات الملكية الجماعية في الأوقاف حيث لا تختص بفرد بل هي عامة لكل من يستحق الوقف بما ينفع الناس، وإحياء الأرض الموات لن تكون ملكاً للمسلمين تخدم مصالحهم، والحاجات الأساسية كالماء والكلأ والنار، فهي احتياجات ضرورية مملوكة لجميع الناس دون أن يستأثر بها أحد دون الآخرين، وكذلك ما أودعه الله الأرض من مواد برية وبحرية ظاهرة أو باطنه، من حديد، ونحاس، وبترول وذهب وفضة وملح، فجميعها تدخل في ملكية الأمة العامة، حتى ولو عثر عليها في أرض مملوكة لفرد، فتكون ملكاً لبيت الدولة تنفقه على مصالح المسلمين قياساً على المنافع العامة وحاجة جميع الناس إليها.[4] ويدخل في الملكية العامة كذلك الزكاة وبالأخص لأهل الحاجات الوارد ذكرهم في قول الله تعالى:(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (التوبة:٦٠) ، ويدخل في ذلك أيضاً: الجزية، والخراج، وخمس الغنائم، والأموال التي لا مالك لها، والعشور المأخوذة من مال الحربيين. وما يدخل في الملكية الخاصة: البيع والشراء، والعمل بأجر للآخرين، والزراعة، وإحياء الموات، والحرف والصناعات، والاحتطاب والصيد، وإقطاع السلطان وجوائزه، والهبة والعطية والهدية، واللقطة والوصايا والإرث، والمهر والصداق وما أخذه المحتاج من أموال الزكاة والصدقة، وما يؤخذ من النفقة الواجبة على الزوجة والولد، فالملكية الفردية معترف بها في هذه النظرية، ومن هنا كانت المساواة في حق التملك وحق الكسب بين الرجال والنساء من ناحية المبدأ العام، وقد أورد الدكتور عبد الواحد وافي في كتابه « حقوق الإنسان » لفتة دقيقة إلى وضع المرأة في الإسلام ووضعها في الدول الغربية جاء فيه :« وقد سوى الإسلام كذلك بين الرجل والمرأة أمام القانون، وفي جميع الحقوق المدنية سواء في ذلك المرأة المتزوجة وغير المتزوجة، فالزواج في الإسلام يختلف عن الزواج

١ / البخاري، باب هل يبيع حاضر لباد بدون اجر، برقم(٢١٥٨)، أبوداود، باب النهي أن يبيع حاضر **لباد**، **رقم(3441)**.

٢ /٤٥ البخاري، باب هل يبيع حاضر لباد بدون اجر، برقم(٢١٥٠)، أبوداود، باب النهي أن يبيع حاضر لباد، رقم(٣٤٤٣).

٣ /أنظر:الحسبة لابن تيمية، ص ٧٩، والطرق الحكمية لابن القيم، ص ١٨٥.

٤ /انظر: المدونة الكبرى،١٩٦/٣، الأحكام السلطانية للما وردي، ص٢٤٨.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

في معظم أمم الغرب المسيحي، في أنه لا يفقد المرأة اسمها ولا شخصيتها المدنية، ولا أهليتها في التعاقد، ولا حقها في التملك، بل تظل المرأة المسلمة بعد زواجها محتفظة باسمها واسم أسرتها، وبكامل حقوقها المدنية؛ وبأهليتها في تحمل الالتزامات، وإجراء مختلف العقود، من بيع وشراء ورهن وهبة ووصية؛ وما إلى ذلك؛ ومحتفظة بحقها في التملك تملكاً مستقلاً عن غيرها . فللمرأة المتزوجة في الإسلام شخصيتها المدنية الكاملة، وثروتها الخاصة المستقلة عن شخصية زوجها وثروته»[1] . ولا يجوز للزوج أن يأخذ شيئاً من مالها – قل ذلك أو كثر – قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ(٢٢ ؟) (البقرة:٢٠،٢١)، وقال: (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (البقرة:٢٢٩) . وإذا كان لا يجوز للزوج أن يأخذ شيئاً مما سبق أن آتاه لزوجته فلا يجوز له من باب أولى أن يأخذ شيئاً من ملكها الأصيل إلا أن يكون هذا أو ذاك برضاها، وعن طيب نفس منها، وفي هذا يقول الله تعالى: (وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً) (النساء:٤)، ولا يحل للزوج كذلك أن يتصرف في شيء من أموالها، إلا إذا أذنت له بذلك، أو وكلته في إجراء عقد بالنيابة عنها. ولكنها محددة بهذه القاعدة، قاعدة ألا يكون المال دولة بين الأغنياء، ممنوعاً من التداول بين الفقراء، فكل وضع ينتهي إلى أن يكون المال دولة بين الأغنياء وحدهم هو وضع يخالف النظرية الاقتصادية الإسلامية كما يخالف هدفاً من أهداف التنظيم الاجتماعي كله، وجميع الارتباطات والمعاملات في المجتمع الإسلامي يجب أن تنظم بحيث لا تخلق مثل هذا الوضع أو تبقي عليه إن وجد.

الثاني: التكافل والتعاون: يقوم الاقتصاد في الإسلام: على التكافل والتعاون الاجتماعي الممثل في الزكاة المفروضة والصدقات المتروكة للتطوع، والأعطيات، والهبات، والكفارات والقروض وصدقة الفطر والأضاحي، والعقيقة وغيرها مما يسد حاجات أفراد المجتمع، لأن نظام التكافل الاجتماعي بين المسلمين؛ قاعدة أساسية يقوم عليها المجتمع الإسلامي، والجماعة المسلمة مكلفة أن ترعى مصالح الضعفاء فيها، واليتامى بفقدهم آباءهم وهم صغار ضعاف أولى برعاية الجماعة وحمايتها، رعايتها لنفوسهم وحمايتها لأموالهم، ولقد كان بعض الأوصياء يخلطون طعام اليتامى بطعامهم؛ وأموالهم بأموالهم للتجارة فيها جميعاً؛ وكان الغبن يقع أحياناً على اليتامى فنزلت الآيات

١ / حقوق الإنسان، عبد الواحد وافي، ص٦٤.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

في التخويف من أكل أموال الأيتام، قال تعالى: (وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً ؟) (النساء:٢)، كما يجعل القرآن لذوي الحاجة من الفقراء والمساكين والمحرومين من المعوزين والضعفاء في المجتمع حقاً مفروضاً في مال الأغنياء يؤدى إليهم على سبيل الوجوب لا على سبيل التفضل والتبرع، يقول تعالى:(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (التوبة:٦٠)، ثم يتحدث عن آداب الصدقة، ويقرر أحكام الدين والتجارة، وهي تكون في مجموعها جانباً أساسياً من نظام الاقتصاد الإسلامي والحياة الاجتماعية التي تقوم عليها، كما يقوم النظام الاقتصادي الإسلامي على الإنفاق في سبيل الله، وهو يكلفها النهوض بأمانة الدعوة إليه، وحماية المؤمنين به، ودفع الشر والفساد والطغيان، وتجريده من القوة التي يسطو بها على المؤمنين، ويفسد بها في الأرض، ويصد بها عن سبيل الله، ويحرم البشرية ذلك الخير العظيم الذي يحمله إليها نظام الإسلام، والذي يعد حرمانها منه جريمة فوق كل جريمة، واعتداء أشد من الاعتداء على الأرواح والأموال .ولقد تكررت الدعوة إلى الإنفاق في القرآن، يقول تعالى:(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ) (البقرة:٢٦).

أخطر مهدد لنظام الاقتصاد في عصرنا الحاضر هو هؤلاء المرابين- الذين كانوا في الماضي أفراداً أو بيوتاً مالية، ويمثلون الآن مؤسسي المصارف العصرية- الذين استطاعوا بما لديهم من سلطة هائلة مخيفة داخل أجهزة الحكم العالمية وخارجها، وبما يملكون من وسائل التوجيه والإعلام في الأرض كلها، وغيرها، أن ينشئوا عقلية عامة بين جماهير البشر المساكين الذين يأكل أولئك المرابون عظامهم ولحومهم، ويشربون عرقهم ودماءهم في ظل النظام الربوي، يوحون إليهم بخبث مسموم بأن الربا هو النظام الطبيعي المعقول، والأساس الصحيح الذي لا أساس غيره للنمو الاقتصادي؛ وأن من بركاته وحسناته كان هذا التقدم الحضاري في الغرب، إن النظام الربوي نظام معيب من الوجهة الاقتصادية البحتة – وقد بلغ من سوئه أن ينبه لعيوبه بعض أساتذة الاقتصاد الغربيين أنفسهم؛ وهم قد نشأوا في ظله، وأشربت عقولهم وثقافتهم تلك السموم التي تبثها عصابات المال في كل فروع الثقافة والتصور والأخلاق ولا قيمة ولا وزن في نظر الإسلام للانتصار العسكري أو السياسي أو الاقتصادي؛ ما لم يقم هذا كله على أساس المنهج الرباني، في الانتصار على النفس، والغلبة على الهوى، والفوز على الشهوة، ولهذا

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

كله ولغيره حذر منه الإسلام وجعله حرباً على الله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ) (البقرة:٢٧٨،٢٧٩). والرّبا حرب لأنه يسبّب ما يلي:

١- **الأزمات الاقتصادية:** وذلك من ناحيتين: الأولى، ما تصيبه طبقة المرابين من إثراء غير مشروع بسبب حصولهم على الفوائد المقرّرة على المقترضين دون المساهمة في مخاطر مشروعاتهم. والثّانية، ميل طبقة المرابين في أوقات الرّخاء إلى التّوسّع في الإقراض، وميلها إلى تقنين الإقراض في أوقات الرّكود، أو منعه خوفاً من احتمالات الخسارة، وعملاً على استرداد قروضها، وإرغاماً للمقترضين على السّداد[١]، مما يزيد من سوء الأزمات الاقتصادية ويوسّع أضرارها.

٢ ـ **الرّبا يسبب الغلاء والانحرافات الماليّة:** فالفائدة الّتي يدفعها المنتج إلى المقرض تُضاف إلى تكاليف الإنتاج، وما ذلك إلّا لأنّ أيّ مشروع لا يعطي أرباحه إلّا بعد سنة أو بضع سنوات، بينما تكون الفائدة مستحقّة في فترة لا علاقة لها بالأرباح،مما يؤدّي إلى غلاء الأسعار، ونحن نعرف أنّ الّذي يستخدم هذا الإنتاج هم أفراد الشّعب الفقراء بشكل عامّ[٢].

٣ ـ إنّ تركّز المال عند المرابي يحرم النّشاط الاقتصادي من هذا المال ومن دخوله فيه، مما يؤدّي إلى الرّكود والتّأخّر الاقتصادي. حيث أنّ هذا المرابي لا يقوم بأيّ نشاط اقتصادي إلّا إذا جاء من يقترض منه، ويتحمّل مخاطر المشاريع الاقتصادية وحده، أمّا المرابي فهو يريد ربحاً مضموناً، وليس على استعداد للتّعرّض لمخاطر أيّ مشروع اقتصادي.

٤ ـ يؤثّر الرّبا على إنشاء الصّناعات الجديدة، وتوسّع الصّناعات القائمة، فالآلات الّتي تُخترع يجب أن تحقق ربحاً سنويّاً يعادل تكلفتها + سعر الفائدة، حتّى يستطيع الصّناع توظيفها في الإنتاج. هذا فضلاً عن مخاطره الأخلاقية والاجتماعية.

الثالث: النهي عن الإسراف والتقتير: إن نظام الإسلام الاقتصادي ينهى معتنقيه عن الإسراف والتقتير؛ وكل ما من شانه أن يحدث اختلالاً في المحيط الاجتماعي والمجال الاقتصادي، فحبس الأموال يحدث أزمات ومثله إطلاقها بغير حساب، ذلك فوق فساد

١ / محمّد عبد المنعم الجمّال، موسوعة الاقتصاد الإسلامي، ٤٠١ بتصرّف.

٢ / نور الدّين عتر، المعاملات المصرفيّة والرّبويّة وعلاجها في الإسلام، ٤٣ وما بعد.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

القلوب والأخلاق، والإسلام وهو ينظم هذا الجانب من الحياة يبدأ به من نفس الفرد، فيجعل الاعتدال سمة من سمات الإيمان، قال تعالى: (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً)(البقرة:٦٧). بل ويصف المبذرين بأشنع الأوصاف، قال تعالى:(إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً)(الإسراء:٢٧)، ذلك للحد من مظاهر الهدر والاستهلاك الزائد عن الحاجة، كما يدعو إلى التصنيع واستخدام كل ما من شأنه زيادة الإنتاجية .

المطلب الخامس: الإصلاح السياسي:

إن القرآن جاء بجملة من القواعد والمبادئ التي ينبغي أن يتقيد بها الحكام في نظام الإسلام السياسي، حتى يتم بواسطتها إصلاح الشأن السياسي، ويزال بها الفساد الذي يعتري مؤسسات الحكم والدولة، و من هذه القواعد ما يلي:١/ الحاكمية لله: إن أول قاعدة يقوم عليها النظام السياسي الإسلامي، هي أن الحاكمية فيه لله وحده، قال تعالى:(إِنِ الحكم إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ إِيَّاهُ)(يوسف:٤٠)، وقد أوضح النبي صلى الله عليه وسلم ذلك في أحاديث كثيرة، فقال:(عليكم بكتاب الله أحلوا حلاله وحرموا حرامه).[1]، وقال عليه الصلاة والسلام:»وإني قد تركت فيكم ما لم تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله، وأنتم مسئولون عنى، فما أنتم قائلون « ؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، ثم قال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكبها إلى الناس: « اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد «[2]. ففي نظام الحكم الإسلامي أن صاحب السلطة والنفوذ هو الله، ومصدر التشريع هو كتابه وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، والحاكم هو الذي ينفذ أمر الله في عباد الله، ولا ينبغي لأحد من الناس أن يدعي أنه هو الحاكم المسيطر الذي يشرع للناس ويسيرهم كيف يشاء، وهذا يعمل على إصلاح الفعل السياسي من مرضين اثنين: أحدهما يتعلق باستبداد الحاكم حين يشعر بأن الأمر مرده إليه فيسطوا ويبطش بقوته وينسى قوة الله ويكون بذلك الفساد في الأرض، وإفساد الحياة جميعها كما حكي الله عن فرعون:(ما علمت لكم من إله غيري) (القصص : ٣٨)، ويفسر ما قلنا قوله الذي حكاه القرآن عنه:(وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ ؟) (الزخرف:٥١)، وما قصد بقوله:(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى

١ /مسند أحمد ، مسند عمر بن الخطاب، رقم(٣٦٢).

٢ /صحيح مسلم، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم(٣٠٠٩)، وسنن النسائي الكبرى، باب الخطبة على الناقة بعرفة، (٤٠٠١).

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ) (القصص:٣٨)، إلا أن يسيرهم كما يشاء؛ و يتبعون كلمته بلا معارض! والحاكمية على هذا النحو ألوهية كما يفيد المدلول اللغوي! وهي في الواقع ألوهية، فالإله هو الذي يشرع للناس وينفذ حكمه فيهم! سواء قالها أم لم يقلها! وعلى ضوء هذا البيان نملك أن نفهم مدلول قول ملأ فرعون: (وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ؟) (الأعراف:١٢٧). و الدعوة إلى ربوبية الله وحده؛ وتنفيذ شريعته يترتب عليها تلقائياً بطلان شرعية حكم فرعون ونظامه كله، وهذا بدوره يصلح مرضاً آخر يصيب الرعية وهو فسق وفساد الرعية، وذلك كما يقول الله سبحانه:(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ) (الزخرف:٥٤)، وما كان فرعون بقادر على أن يستخف قومه فيطيعوه، لو لم يكونوا فاسقين عن دين الله، فالمؤمن بالله لا يستخفه الطاغوت، ولا يمكن أن يطيع له أمراً، وهو يعلم أن هذا الأمر ليس من شرع الله، وتنفيذ حكم الله تعالى وتحكيم شرعه يحفظ الأصول الأساسية: الدين، والنفس، والعقل، والمال والعرض، وفي حفظها حفظ للمجتمع بأكمله من أن ينحط إلى درك الرذائل، وبذلك يتحرر الحكام من هذه الأمراض وترقى الشعوب وتقوم بدورها الأساس في عالم الشهادة على الأمم، يقول تعالى: (كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)(البقرة:١٤٣)، والقرآن الكريم يعزز هذا المبدأ ويلزم المسلمين بالتحاكم إلى الله وتنفيذ شريعته، وهذا هو الأصل الذي يقوم عليه الإصلاح السياسي، ولا يقبل تعالى غيره، قال تعالى:(أَفَحُكْمَ الجاهلية يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ الله حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ)(المائدة : ٥٠).٢- العدل في الحكم: وعليها أسس بناء الدولة الإسلامية، أن الجميعَ متساوون أمام القانون، وينفذ فيهم حكم الله بدرجة واحدة، من أدنى فرد في المجتمع إلى القادة والساسة، ليس فيه محاباة لأحد ولا مجاملة، كما أعلن ذلك القرآن، قال تعالى: وهذا يعني أن الحاكم في الإسلام مأمور بالإنصاف بين جميع الناس، وأن علاقته بهم علاقة العدل والإنصاف، فالأقرباء والأجانب، والشرفاء والوضعاء، متساوون أمام القانون، والحق حق للجميع، والجرم جرم الجميع، والحرام حرام على الجميع، والحلال حلال للكل، لا يستثنى من سلطة القانون حتى الحاكم، والنبي صلى الله عليه وسلم يوضح ذلك بقوله:(إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)[١] ,٣- المساواة بين الناس: من الأسس التي قام عليها نظام الحكم في الإسلام أن الناس متساوون في الحقوق والواجبات دون النظر إلى اللون أو الجنس أو لغة أو

---

١ /صحيح البخاري، باب ذكر اسامة بن زيد، برقم(٣٧٣٢)، ومسلم، باب قطع السارق الشريف وغيره، برقم(٤٥٠٥).

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

وطن، ولم يكن لأي فرد أو جماعة أو هيئة أو حزب أو جماعة أو طبقة أو جنس أو شعب داخل الدولة الإسلامية إي نوع من التمايز في الحقوق، ولا كانت منزلة فرد أعلى أو أدنى من الآخر، قال تعالى:(يا أيها الناس إنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأنثى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وقبائل لتعارفوا إنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللّه أَتْقَاكُمْ) (الحجرات: ١٣).٤- مسئولية الدولة: إن الحكومة وسلطاتها وأموالها في نظام الإسلام أمانات لله عند المسلمين، ينبغي إيكالها لأناس يخشون الله عادلين مؤمنين، وليس لأحد الحق في التصرف فيها بطرق مشبوهة أو لأغراض شخصية، يقول تعالى: (إِنَّ اللّه يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأمانات إلى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ الناس أَن تَحْكُمُواْ بالعدل إِنَّ اللّه نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ) (النساء: ٥٨)، وأنها يوم القيامة خذي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى ما عليه تجاهها، والمسئولية في القرآن تبدأ بمسئولية الفرد المؤمن، ومسئولية المجتمع ككيان ومسئولية ولي الأمر، وهذه المسئولية بهذه الأبعاد لها أثر عظيم في إصلاح الحياة كلها، وينعكس ذلك في تقدير الواجب، بزيادة قوة الوازع الداخلي ورقابة الخالق سبحانه، ويقوي طاقة المجتمع وقدراته العملية، ويرفع من كفاءته الإدارية، وفي ذلك يقول أمير المؤمنين عمر: (والله لو أن بغلة عثرت لسألني عنها ربي لم لم أسوي لها الطريق)[1]. ذلك فضلاً عن أن الإسلام نهى عن طلب الأمارة والسعي لها واستخدام كافة الوسائل في الوصول إليها لأنها أمانة ويوم القيامة خذي وندامة!!.٥- الشورى: من القواعد المهمة جداً في الدولة الإسلامية و هي حتمية تشاور قادة الدولة وحكامها مع عامة المسلمين، والنزول على رضاهم ورأيهم، وإرساء دعائم الشورى، يقول تعالى:(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) (الشورى:٣٨)، وقوله تعالى:(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) (آل عمران:١٥٩)، وردت الشورى في ثلاثة آيات في القرآن الكريم: أولها في شأن الأسرة لتربية هذه الوحدة الاجتماعية الصغيرة على الشورى وتبادل الرأي حتى لا يستبد فيها أحد برأي أو أمر مهما صغر، والنص الثاني نزل في شأن المجتمع كله وفي شئونه جميعها، ويتربى عليها المجتمع ضمن جملة من الفضائل، والنص الثالث خاص بالحاكم الذي ينبغي أن يكون قد تربى عليها في بيته ومجتمعه، ألا ما أحوج البشرية إلى الدعاة والمصلحين والقادة الراشدين، الذين يبددون ظلام الاستبداد ويقطعون دابر الفساد، ويقيمون موازين القسط، ويرفعون مشاعل النور، ويمارسون الشورى ويحمونها في جميع ممارساتهم السياسية.٥- الطاعة في المعروف: ومن الأسس أيضاً التي يقوم عليها نظام الحكم في الإسلام الطاعة في المعروف، ولا لأحد أن يطاع في معصية، ومعنى ذلك أن الحكم الصادر من الحكومة والحكام إلى رعيتهم واجب الطاعة طالما أنه في المعروف ووافق القانون الإسلامي، وحين يخالف الأمر

١

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

قانون الإسلام؛ لا طاعة لهم في ذلك، ولا يلزم أحد تنفيذ هذا الحكم، وبيعة النبي عليه الصلاة والسلام وردت في القرآن مشروطة بالطاعة في المعروف على الرغم من عدم الشك في صدور أمر من جانبه صلى الله عليه وسلم، فيه معصية، يقول تعالى:(وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ) (الممتحنة:١٢)، ويقول عليه الصلاة والسلام:(على المرء المسلم الطاعة فيما أحب أو كره . إلا أن يؤمر بمعصية . فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة).[١] ٦- واجب الدولة الإسلامية: إن أول واجب فرض على الدولة الإسلامية وعلى الحاكم المسلم هو أن يقيم نظام الدين في الحياة بحذافيره غير منقوص، وهو ما كلف به خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم والأنبياء من قبله، قال تعالى:(شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى به نُوحاً والذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا به إِبْرَاهِيمَ وموسى وعيسى أَنْ أَقِيمُواْ الدين وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فيه) (الشورى:٣١)، وواجبها أيضاً أن تقضي على الشر وتزيله، وترفع من قدر الخير وتنشره طبقاً لمعيار الإسلام الأخلاقي، يقول تعالى:(الذين إِنْ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض أَقَامُواْ الصلاة وَآتَوُاْ الزكاة وَأَمَرُواْ بالمعروف وَنَهَوْاْ عَنِ المنكر) (الحج: ٤١)، وأن جهاده ضد العالم غير الإسلامي ليكون الدين كله لله، ولهذا كان هدف الحكومة الإسلامية الأول أن تقيم نظام الدين كاملاً، وألا يكون فيها هذا الخلط والعجن والتخبط الذي يبدو واضحاً في المجتمعات التي تدين بالإسلام اليوم، والذي نبه إليه النبي صلى الله عليه وسلم في سنته، بقوله:(أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةٌ مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ).[٢] ومن واجبات الحاكم المسلم وواجب كل مسلم أن يقول كلمة الحق، ويحمي الخير ويذب عنه، وأن يبذل ما في وسعه لمنع المنكر والضرب على يد الباطل قدر إمكانه، يقول تعالى:(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)(التوبة:٧١)، ويقصف الله بذلك المؤمنين فيقول:(الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) (التوبة:١١٢). وأما أقوال النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك كثيرة منها:(من رأى منكم منكراً فلغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان).[٣]

١ / صحيح البخاري، باب السمع والطاعة للإمام، (٧١٤٤)، وصحيح مسلم، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، برقم(٤٨٦٠)، وسنن ابن ماجة، باب لا طاعة في معصية الله، برقم(٢٨٦٤).

٢ / صحيح البخاري، باب من طلب دم أمرئي بغير حق،(٦٨٨٢).

٣ / صحيح مسلم، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، برقم(١٨٦)، وأبو داود، باب الخطبة يوم العيد، (١١٤٤).

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

المبحث الخامس: نماذج قرآنية للإصلاح

نقف هنا مع بعض المشاهد في سورة الكهف لنجد مفارقات عجيبة، ندركُها حين نتعايش مع أحداث السورة العجيبة وقصصها المؤثرة: منها أننا أمام ثلاثة ممالك متباينة وأنظمة مختلفة: ففي قصة أصحاب الكهف نلمسُ صورة الملك الظالم الذي سلب قومه عقولهم وغصبهم حريّتهم فَأَطَرَهم على الكفر أَطْراً، يتبين ذلك من قول الفتية كما أخبر القرآن، قال تعالى: (إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ والأرض لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إِلهاً لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا) (الكهف: ١٤) ، وفي قصة موسى والخضر نلمح شخصية الملك الغاصب الذي يسرق أموال رعيته ويسلب ممتلكاتهم فلا يجدُ من يتصدَّى له ويرده عن ظلمه، قال تعالى على لسان الخضر – عليه السلام: (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً (٧٩) (الكهف: ٧٩) . أما ذو القرنين فإنه نموذجٌ رائعٌ للملك الصالح المتعفف الذي مكَّنه الله في الأرض فأقام ميزان العدل والإحسان، وأزال سلطان الكفر والطغيان، وحمل رايةَ الحقِّ ومصابيح الهدى، وعاش الناس في عهده حياةً آمنة مطمئنةً.

المطلب الأول: قصة موسى مع الخضر عليهما السلام:

قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، قصةٌ عجيبةٌ تتجاوز بنا حدود الزمان وحواجز المكان لتعود بنا إلى زمنِ موسى – عليه السلام –، بعد أن مكَّن الله تعالى له ونجاه من فرعون وجنوده، وقام – عليه السلام – خطيباً في بني إسرائيل يذكرهم بأيام الابتلاء والتمحيص والملاحقة والاضطهاد من قِبَلِ فرعونَ وجنودِه، ثم أيام النصر والتمكين من عند الله تعالى. كان لكلامه– عليه السلام– وقعاً في النفوس وتأثيرًا على القلوب، حتى قام أحد المعجبين بهذه الخطبة الواقعية الوعظية العصماء، المولعين بتلك البلاغة والطَّلاقة المتدفقة من ينابيع العلم التي تتفجر على لسان نبي الله موسى – عليه السلام –، حين يدور الحديث عن الماضي القريب الذي شاهدوه وعاينوه . سأله : يا نبيَّ الله هل هناك من هو أعلم منك ؟ هل على ظهر الأرض من إنسانٍ تفجرت له ينابيعُ الحكمة ، وجُمِعَتْ له أوابدُ البلاغة وحَمَلَ بين جنبيه رسالة خيرٍ وإصلاحٍ كتلك التي حملتها لنا وقدمتها بصبرٍ وأناة ؟ ظنَّ موسى – عليه السلام – أن الإجابة يسيرة لا تحتاج إلى تفكرٍ وإمهالٍ ، فقال : لا . لكنْ المفاجأةُ تأتي مطويَّةً في : رسالة إلهية محمَّلة بروح العتاب على هذا التسرع في الجواب، روي عن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ حَدَّثَنِي أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ– رضي الله عنه– قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – « ... مُوسَى رَسُولُ اللَّهِ ذَكَّرَ النَّاسَ

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

يَوْمًا حَتَّى إِذَا فَاضَتِ الْعُيُونُ، وَرَقَّتِ الْقُلُوبُ وَلَّى، فَأَدْرَكَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ أَيْ رَسُولَ اللَّه: هَلْ فِي الأَرْضِ أَحَدٌ أَعْلَمُ مِنْكَ قَالَ لاَ، فَعُتِبَ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَى اللَّه ...»[1]. وروى: عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ- رضي الله عنه - قَالَ: قُلْتُ لابْنِ عَبّاس: إِنّ نَوْفاً الْبِكَالِيّ يَزْعُمُ أَنّ مُوسَى - عليه السلام -، صَاحِبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَيْسَ هُوَ مُوسَى صَاحِبَ الْخَضِرِ - عليه السلام - ! فَقَالَ: كَذَبَ عَدُوُّ اللّه: سَمِعْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ - رضي الله عنه - يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّه - صلى الله عليه وسلم -يَقُولُ: « قَامَ مُوسَى - عليه السلام - خَطِيباً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ: أَيُّ النّاسِ أَعْلَمُ ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ، قَالَ: فَعَتَبَ اللّه عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللّه إِلَيْهِ : أَنّ عَبْداً مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، قَالَ مُوسَى: أَيْ رَبّ كَيْفَ لِي بِهِ ؟ فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتاً فِي مِكْتَلٍ، فَحَيْثُ تَفْقِدُ الْحُوتَ فَهُوَ ثَمّ، فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقَ مَعَهُ فَتَاهُ، وَهُوَ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ، فَحَمَلَ مُوسَى - عليه السلام -، حُوتاً فِي مِكْتَلٍ، وَانْطَلَقَ هُوَ وَفَتَاهُ يَمْشِيَانِ حَتّى أَتَيَا الصّخْرَةَ، فَرَقَدَ مُوسَى - عليه السلام - وَفَتَاهُ، فَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمِكْتَلِ، حَتّى خَرَجَ مِنَ الْمِكْتَلِ، فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ، قَالَ: وَأَمْسَكَ اللّه عَنْهُ جِرْيَةَ الْمَاءِ حَتّى كَانَ مِثْلَ الطّاقِ، فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَباً، وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَباً، فَانْطَلَقَا بَقِيّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتَهُمَا، وَنَسِيَ صَاحِبُ مُوسَى أَنْ يُخْبِرَهُ، فَلَمّا أَصْبَحَ مُوسَى - عليه السلام - قَالَ لِفَتَاهُ: آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً، قَالَ: وَلَمْ يَنْصَبْ حَتّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الّذِي أُمِرَ بِهِ مَائِلٌ، قَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ هَكَذَا، فَأَقَامَهُ، قَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُضَيِّفُونَا وَلَمْ يُطْعِمُونَا، قال تعالى: (فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا) (الكهف:٧٧)، قَالَ رَسُولُ اللّه - صلى الله عليه وسلم -: «يَرْحَمُ اللّه مُوسَى، لَوَدِدْتُ أَنّهُ كَانَ صَبَرَ حَتّى يُقَصّ عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِهِمَا»، قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللّه - صلى الله عليه وسلم -: «كَانَتِ الأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَاناً «، قَالَ: «وَجَاءَ عُصْفُورٌ حَتّى وَقَعَ عَلَى حَرْفِ السّفِينَةِ، ثُمّ نَقَرَ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللّه إِلاّ مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنَ الْبَحْرِ»[2].

من المقاصد السامية لتلك القصة؛ هنالك مقاصدُ ومعانٍ تحملُها لنا هذه القصةُ الهادفةُ البناءة، الشافيةُ الكافية، التي سيقت لتعالج قضايا حيوية ومشكلاتٍ أساسية تعاني منها كثيرٌ من المجتمعات والبيوت، مشكلاتٍ عويصةٍ مزمنة، متشابكةٍ متعاقبة، جاءت هذه

١ / رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير باب ﴿ حديث موسى مع فتاه﴾ ، حديث (٤٧٧٢).

٢ / البخاري في صحيحه كتاب العلم - باب: ما يستحب للعالم إذا سئل: أي الناس أعلم؟ فيكل العلم إلى الله. الحديث ١٢٢ ، وفي كتاب الأنبياء باب : حديث الخضر مع موسى عليهما السلام. الحديث ٣٢٢٠ ، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل - باب من فضائل الخضر- عليه السلام - ١٧٠ - (٢٣٨٠) .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

الرحلة لتسلط الأضواء عليها، وتلفت الأنظار إليها، وتبين المنهج الأمثل والحلول الحاسمة لها؛ من هذه المشكلات: مشكلة الظلم الاجتماعي: المتمثل في نموذج الملك الغاصب الذي ينهب الرعية ويستبيح أموالهم ويستنزف ثرواتهم، دون أن يلقي لذلك بالاً، أو يجد من ينكر عليه أفعاله الشنيعة، ويحول بينه وبين ركوبِ متنِ الحرام، وارتكاب الجرائم العظام، سيَّما في حق المساكين من الضعفاء المقهورين! المستضعفين الكادحين! وأنَّى لأحدٍ أن ينكرَ أو يشتكي؛ وقد ألجمَ الطاغيةُ الألسنةَ، وكَمَّمَ الأفواهَ وأذهلَ العقولَ وشرَّد الجموعَ، وملأ القلوب رعباً وهلعاً وجعل من مملكتهِ سجوناً مُفَتَّحةً قد عجَّت بالأبرياءِ والمظلومين، كما هو حادث الآن في دول كثيرة من حولنا.

على حد قول الأخطل الصغير:

ألجِم لسانَكَ ألجِمْ فالموتُ للمتكلِّم لا يسألونك إن أُخذتَ أَثِمْتَ أم لَم تأثَمْ

فالسِّجنُ خيرُ مرحِّب والحبلُ خيرُ مسلِّم   ولربَّ مأخوذ بذنب عَشيرَة ونجا المُقَارِفُ صَاحبُ الذَّنب. قال تعالى: (وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا) (الكهف: ٨٢)، مشكلة أسرية: تتمثل في أخطر ما يهدد مستقبلَ الأسرة الهادئة الهانئة: ويُكدِّرُ صفوَها ويبدد جُهْدَهَا ويُشتتُ جمعَها ويُعطِّل مسيرها: وهو ما قد تُسفرُ عنه الأيام من عقوق الوالدين، في زمانٍ تمسُّ الحاجةُ فيه إلى برِّهما، فإذا المودة وقد انقلبت عداوةً ونكراناً، وإذ بالبر والإحسانِ يُقَابَلُ بالعقوق والجفاء، والجحود والنسيان. ولسان حال ذلك الذي تفطَّر قلبه وتفتت كَبِدُهُ غما وكمدا على فَلَذَةِ كبدِهِ الذي قابل الإحسانَ بالإساءة : كما قال إبراهيم بن العباس :

وَكُنْـتُ أَذُمُّ إِلَيْـكَ الزَّمَــانَ   فَأَصْبَحْتُ فيكَ أذمُّ الزَّمَـانا
وَكُنْـتُ أعــدُّكَ للنَّائِبَــات   فها أَنا أَطْلُبُ منْكَ الأَمَـانا
أيصيرُ الولدُ محنةً وشرًّا وقد كان لنوائب الزمان مُدَّخَرًا !
كُنْتُ مِـــنْ مِحْنَتي أَفِـرُّ إِلَيْهِمْفَهُـمُ مِحْنَتي فَأَيْنَ الفِـرارُ
وإخــوانٍ حسبتُهم دروعــاً   فكانوهـا ولكــنْ للأعـادي
وخلتُهُم سهــاماً صــائبات   فكـانوها ولكـنْ في فؤادي
وقالوا: قد صَفَتْ منا قُلوبٌ   لقد صدقُوا ولكن مِنْ وِدَادي[1].

١ / أنشدها السمعانيُّ بإسنادِهِ لعليٍّ بنِ فضالٍ المجاشعيٍّ، في ترجمة صاعد بن سيارٍ الهروي.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

قال تعالى: (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً) (الكهف: ٧٩) ، مشكلة اقتصادية أم أزمةٌ أخلاقيةٌ؟، نوعٌ آخر من أنواع الفساد ومشكلة أخرى من أخطر المشكلات: هي المشكلة الاقتصادية أو الفساد الاقتصادي، وهو بلا شك مترتبٌ على الفساد السياسي ونتيجةٌ للظلم الاجتماعي، الفسادُ الاقتصاديُّ: حيث الأنانيةُ والأَثَرَةُ، ممزوجةً بالطَّمَعِ والجشع، في مجتمعاتٍ قتلها الفقرُ، وأهلكَها الشحُّ، وأرهقها الطغيانُ الماديُّ، حتى غدت مضيِّعةً حلقٍّ الضيف المعلوم، فضلاً عن حقِّ الضعيف المهضوم، أما أموالُ اليتامى فلو ظَفِرَ بها يوما لأضحتْ غنيمةً باردةً وأمست لقمة سائغةً، من هنا كانت مهمة الخضر- عليه السلام - أن يقيم الجدار ليحفظ الكنزَ .

قال تعالى : (فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً) (الكهف: ٧٩) . وهكذا تلمسُ هذه القصةُ الواقعيةُ جوانبَ مهمةً في حياةِ الأمم والمجتمعات .

إلى رحاب القصة :

المناسبة لهذه القصة الجليلة صلتها الوثيقة واتساقها العجيب وانتظامها الدقيق مع سياق السورة الكريمة، وبيان ذلك من وجوه : أولها:صلتها بما قبلها : لما بين الله عز وجل في الآية السابقة أنه تعالى رحيمٌ في ملكه عادلٌ في حكمه، ومن ذلك إهلاكه للظالمين بعد إمهالهم وإعذارهم قال تعالى: (وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً (٥٨) (الكهف:٥٨) ، بيَّن في هذه القصة أمثلةً واقعيةً للعدلِ الإلهيِّ، ولما جعل الله لهلاك الظالمين موعداً محدداً: فقد جعل الله للقاء موسى مع الخضر موعدا مؤكَّدًا، فكلُّ شيء له وقتٌ وتقديرٌ، وليعلم الدعاةُ والمصلحون أن إمهال الله للظالمين واستدراجهم والمسارعة لهم في الخيرات لِحَكَم جليلة، كما تمخضتْ أفعالُ الخضرِ التي فعلها عن أمرٍ إلهيٍّ عن حِكَم عجيبةٍ .ثانيها:صلتها وانتظامها مع باقي القصص الواردة في السورة الكريمة ومحورها العام : اشتملت سورةُ الكهف على مجموعةٍ من القصص العجيبة والأمثال الواقعية والنماذج البشرية والقيم والمعاني السامية التي تُحلِّق بنا في أجواء الفضيلة، وتغوصُ في أعماق النفس البشرية لتسبرَ لنا أغوارها، وتكشفَ شيئا من مكنوناتها، وتُجليَ لنا معالمَ العصمة وطرائق النجاة من الفتن، وتقدم لنا مفاتحَ الثبات أمام المحن. فتنٌ كثيرة كم كانت سبباً في هلاك أنفس، وإتلاف أموال، وضياع ثروات، والانحراف عن طريق الحق إلى درك الشقاء في الدنيا والآخرة. جاءت قصة موسى مع الخضر عليهما السلام لتبين لنا قيمة العلم النافع وهو أقوى الأسلحة وأمضاها أمام

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

جحافل الفتن وكتائب البلاء والمحن. جاءت لتأخذ بأيدينا وتوجه عقولنا وأنظارنا نحو العلم الشرعي الذي من أجله خرج موسى – عليه السلام – يحدوه العزمُ والإصرارُ على مواصلة السير إلى ذلك العبد الصالح لينهل من علمه. ومن وجوه المناسبات أيضاً: أنه تعالى لما أشار في هذه السورة الكريمة إلى زينة الدنيا ومباهجها جاءت الرحلةُ الميمونةُ: لتمسَّ ثلاثة ألوان من ألوان الزينة: زينةُ المُلْك والسلطان ولكن ما قيمته إذا كان بيد ملك غاصب! وزينةُ الولد: ولكن ما مزيَّته إذا خرج الولد عاقًّا جاحدًا ! وزينة المال: فما أزينَهُ إذا كان لعبدٍ صالحٍ! كما في قصة الغلامين اليتيمين .

ولقد أبرزَ الفخر الرازي مناسبةً بين قصة موسى والخضر وبين قصة أصحاب الكهف والرد على الكفار الذين افتخروا على الفقراء وتعالَوا عليهم، فقال : « ... أما نفعُ هذه القصة في الرد على الكفار الذين افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة الأموال والأنصار فهو أن موسى – عليه السلام – مع كثرة علمه وعمله وعلوِّ منصبه واستجماع موجبات الشرف التام في حقه ذهب إلى الخضر لطلب العلم وتواضع له، وذلك يدل على أن التواضع خيرٌ من التكبر، وأما نفعُ هذه القصة في قصة أصحاب الكهف: فهو أن اليهود قالوا لكفار مكة إن أخبركم محمد عن هذه القصة فهو نبيٌّ وإلا فلا، وهذا ليس بشيء لأنه لا يلزم من كونه نبيا من عند الله تعالى أن يكون عالما بجميع القصص والوقائع، كما أن كون موسى – عليه السلام – نبيا صادقا من عند الله لم يمنع من أمرِ الله إياه بأن يذهب إلى الخضر ليتعلم منه، فظهر مما ذكرنا أن هذه القصة قصةٌ مستقلةٌ بنفسها، ومع ذلك فهي نافعة في تقريرِ المقصودِ في القصتين المتقدمتين[1] .

وقال صاحب الظلال « ... وهكذا ترتبطُ في سياق السورة قصة موسى والعبد الصالح ، بقصة أصحاب الكهف في ترك الغيب لله، الذي يدبر الأمر بحكمته، وفق علمه الشامل الذي يقصر عنه البشر، الواقفون وراء الأستار، لا يكشف لهم عما وراءها من الأسرار إلا بمقدار ... « [2] . ويصف الله الخضر: ثم وصفه الله سبحانه فقال: (فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَآ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً) (الكهف: ٦٥)، وصفه تعالى بأنه عبدٌ من عباده؛ والعبودية أسمى المقامات وأشرف الغايات التي من أجلها خلق الإنسان، وفي هذا ما يدل على ما كان عليه الخضر – عليه السلام – من اجتهادٍ في العبادة، وهذه صفة أساسية من صفات أهل العلم ورجال الدعوة والإصلاح. ومن فوائد هذه القصة أن لا

١ / التفسير الكبير للفخر الرازي ١٤٣/٢١ وانظر:، فتح القدير للشوكاني ٣ / ٤٢٤.

٢ / انظر:في ظلال القرآن ١٥/ ١٠٠.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

يعجب المرء بعلمه ولا يبادر إلى إنكار ما لم يستحسنه فلعلَّه ينطوي على حكمة لا يعرفها . تعلمُ العلم عبادةٌ وقربةٌ، وهو ليس غايةً في ذاته بل الغرضُ الانتفاعُ به في أُمورِ الدين والدنيا، ولهَذا قال: (فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَآ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً) (الكهف : ٦٥) ، أي أسترشد به وأتزود منه لدنياي وآخرتي، قال ابن القيم: « العلم اللدني: ثمرة العبودية والمتابعة والصدق مع الله والإخلاص له وبذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله وكمال الانقياد له فيفتح له من فهم الكتاب والسنة بأمر يخصه به كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد سئل: هل خصكم رسول الله بشيء دون الناس فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهما يؤتيه الله عبدا في كتابه فهذا هو العلم اللدني الحقيقي »[1]، قال أبو حيان رحمه الله: « وفي قول الخضر لموسى : من أنتَ ؟ وقد علمه الله بواطن الأشياء ومآلها دليل على كذب هؤلاء المنتمين للتصوف المدعين علم الغيب والكشف عن أحوال الناس أعاذنا الله من ذلك »[2] .

المطلب الثاني: مؤهلات المربي والمصلح من قصة أصحاب الكهف:

ورد في القصة مؤهلات المعلم والمربي والمصلح: وهي العبودية، الرحمة، العلم فلا بد أن يكون مجتهداً في العبادة، وأن يتحلى بمكارم الأخلاق والتي تمثلُ الرحمةُ لبابَها وأساسها، وأن يكون على علم . وفي تقديم الرحمة على العلم: ما يدل على أهميتها للعالم والمتعلم، والمصلح، فلا يعقَل انتزاع الرحمة من قلوب أهل العلم، ولقد رأينا ما ترتب على وصول العلم لمن عدموا الرحمة كيف أساءوا إلى العلم وأساءوا إلى من حولهم بل كيف أساءوا إلى البشرية حين وجهوا العلم لما يهدد خطرَ الإنسانية وأفسدوا بمخترعاتهم البر والبحر ولوَّثوا الأجواءَ والأجوافَ، كذلك رأينا كيف عَدم بعض المعلمين الرحمة حتى غدا التعليمُ تجارةً رابحةً لا رسالةً ساميةً، كذلك انتُزعت الرحمة من قلوب بعضِ طلاب العلم ،فأساءوا إلى معلميهم ، ولربما تطاولوا عليهم ! ومما يستفاد من القصة: أن العلم نوعان: علم مكتسب يدركه العبد بجده واجتهاده، وعلم لدني، يهبه الله لمن يمن عليه من عباده لقوله: (وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً) . وتحلي طالب العلم بالصبر والأناة وتأدبه مع شيخه وترفقه عند السؤال، ومنها: أن يمتحن الشيخ من جاء للطلب على يديه « المقابلة الشخصية » وذلك لطلاب العلم خاصة العلم الشرعي لمعرفة مدى استعداد الطالب ومدى حرصه وهمَّتِه في طلب العلم، وبيان ما يحتاجه طريق العلم من جِدٍّ واجتهاد وبذل وعطاء، قال صاحب روح

١ / مدارج السالكين لابن القيم ٢ / ٤٧٦.

٢ / تفسير النهر الماد من البحر لأبي حيان على هامش البحر المحيط ١٤٢/٦.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

البيان : « يمتحنه بأن يخبره عن دقة صراط الطلب وعزة المطلوب وعسرته، وفى ذلك يكون له مبشِّرا ولا يكون منفرا، فإن وجده صادقا في دعواه وراغباً فيما يهواه معرضاً عما سواء يتقبله بقبول حسن ويكرم مثواه ويقبل عليه إقبال مولاه ويربيه تربية الأولاد ويؤدبه بآداب العباد «[1]، وفيه التماس العذر للآخرين ومراعاة تفاوت الناس في الفهم والإدراك والتحصيل والاستيعاب، تأمل في قوله تعالى: (وَكَيْفَ تَصْبِرُ على مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً) (الكهف : ٦٨)، فالتمس له العذر في ذلك لما سيلقاه من عجائب وغرائب، ومنها الإشارة إلى جملةٍ من مناقب نبي الله موسى – عليه السلام – ومنها الصدق وعلو الهمة والمثابرة وحسن الصحبة والتواضع واللين والحياء والإيجابية والصبر .

ومن الفوائد المهمة: ينبغي على الدعاة والمصلحين أن ينطلقوا بدعوتهم إلى أعماق المجتمع لدراسة الواقع والتعامل معه ومعايشة هموم الناس وتفقد أحوالهم، وأن يلتمسوا العبرة من هذه الرحلة العملية رحلة موسى والخضر وفصولها الثلاث وانطلاقهما في قلب الأحداث، للإلمام بالواقع ومعايشة أحوال الناس ومعالجة مشكلاتهم . وفيها: « دليل على أن المسكين وإن كان يملك شيئاً لا يزول عنه اسم المسكنة إذا لم يقم ما يملكه بكفايته ... «[2]، فعلى الأغنياء وبيوت الزكاة والمؤسسات الخيرية أن لا تغفل عن هذا المسكين الذي لا يستطيع بدخله المحدود أن يلبي احتياجات بيته، في ظلِّ هذه الأوضاع الاقتصادية المتردية والغلاء الفاحش الذي تعاني منه معظمُ الشعوب المسلمة حيث تتسع الهوَّة بين الأغنياء والفقراء، وينخفض فيها دخل الفرد مع زيادة معدلات التضخم، ومنها: الرضا بقضاء الله تعالى والصبر عند فقد الولد، وتفويض الأمر لله؛ فهذا الغلام الذي قتله الخضر لو عاش لذاق والداه الأمرَّين، ولقيا العنت، فكان موتُه راحةً لهما ورحمةً بهما، فليرض العبد بقضاء الله تعالى؛ فإن قضاء الله سبحانه وتعالى للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب وصدق من قال :

عَطِيَّتُهُ إِذَا أَعْطَى سُرُورًا وَإِنْ أَخَذَ الذي أعطَى أَثَابَا فَأَيُّ النعمتينِ أجلُّ قدرًا وَأَحْمَدُ فِي عَوَاقِبِهَا مَآبَا ؟

أَنَعْمَتُهُ التي أَهْدَتْ سُرُورًا ؟ أَم الأُخْرَى التي أَهْدَتْ ثَوَابَا؟ بَلِ الأُخرَى وإن نزلتْ بكُرْه أَحَقُّ بِشُكْرِ مَنْ صَبَرَ احتِسَابَا، ومنها: أن الناسي غير مؤاخذ بنسيانه، لقوله تعالى: (وَمَآ أَنْسَانِيهُ

١ / روح البيان للبر وسوي ٥/ ٢٣٥.

٢ / لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٤ / ٣٢٧.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

إلاَّ الشيطان أَنْ أَذْكُرَهُ) (الكهف : ٦٣)، ومنها: أن الأمور تجري أحكامُها على ظاهرِها، وتعلق بها الأحكامُ الدنيوية في الأموال والدماء وغيرها؛ فإن موسى – عليه السلام – أنكر على الخضر خرقه السفينة وقتل الغلام وأن هذه الأمور ظاهرها أنها من المنكر، وموسى – عليه السلام – لا يسعه السكوت عنها في غير هذه الحال التي صحب عليها الخضر، فاستعجل – عليه السلام – وبادر إلى الحكم في حالتها العامة، ولم يلتفت إلى هذا العارض الذي يوجب عليه الصبر وعدم المبادرة إلى الإنكار. ومنها: أن عمل الإنسان في مال غيره إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة أنه يجوز، ولو بلا إذن حتى ولو ترتب على عمله إتلاف بعض مال الغير، كما خرق الخضر السفينة لتعيب فتسلم من غصب الملك الظالم ، فعلى هذا لو وقع حرق أو غرق أو نحوهما في دار إنسان أو ماله وكان إتلاف بعض المال أو هدم بعض الدار فيه سلامة للباقي جاز للإنسان بل شرع له ذلك، حفظًا لمال الغير، وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير ودفع إليه إنسان بعض المال افتداء للباقي جاز ولو من غير إذن، ومن لطائف الفوائد: التأدب مع الله تعالى ورعاية حقوقه ومراعاة مقامه تعالى؛ يتجلى ذلك في قول الخضر عند تأويل خرق السفينة، قال تعالى: (وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي) (الكهف: ٨٢)، بإسناد العيب إلى نفسه أما قوله: (فَخَشِينَا أَنْ يُرهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْرًا) (الكهف:٨٠) فقال « وكفرًا « لأن الكفر مما يجب أن يخشاه كل أحد، وقال في تأويل الجدار: (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ)) (الكهف:٨١) ، بالإسناد إلى الله تعالى وحده؛ لأن بلوغ الأشد وتكامل السن ليس إلا بمحض إرادة الله تعالى من غير مدخل وأثر لإرادة العبد .

من العبر والعظات المستمدَّة من القصة :

هناك العديد من العظات والعبر التي يمكن أن يستفيد ها دعاة الإصلاح من هذه القصة تتمثل فيما يلي:

١- أنه تعالى من كمال تدبيره وحكمته وتمام لطفه ورحمته أن قيَّض نبيين مثل موسى والخضر عليهما السلام في مصلحة يتيمين فعلى العلماء والدعاة أن لا يضنُّوا بأوقاتهم في رعاية الأيتام وقضاء حوائجهم وتربيتهم، وفي هذا إشارة إلى ضرورة عناية العلماء وهم ورثة الأنبياء بكفالة الأيتام والحمد لله تقام في طول بلاد المسلمين وعرضها جهودٌ طيبةٌ لكفالة الأيتام .

٢- ومنها أن الله تعالى يحفظ المال الصالح للعبد الصالح إذا كان فيه صلاح له ولذريته

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

الصالحة من بعده، قال محمد بن المنكدر: « إن الله سبحانه وتعالى يحفظ بصلاح العبد ولده وولد ولده وعشيرته وأهل دويرات حوله »[1]، إذا رأى المسلم منكراً فيجب عليه أن يسارع إلى إنكاره أيًّا كان فاعله، مع التزام الأدب والترفق بالفاعل، لاحتمالِ أن يكون للمسألة وجهٌ؛ إذ لا إنكار في مسائل الخلاف .

المطلب الثالث: قصة ذي القرنين:

يأتي الحديث في القرآن عن قصة عجيبة، قصة ذلك الرجل الصالح الذي مكَّن الله له، وهيأ له الأسبابَ فأخذ بها، واجتهدَ في استثمارها وتطويرها، فطوَّف في الأرض، وجال في أقطارها، قائداً ظافراً، وحكماً عادلاً، وسلطاناً قوياً، وعبداً شكوراً، فملأ الدنيا عدلاً ونوراً حمل راية الإصلاح والتغيير، وطاف بجنده وعتاده، لينشر العدالة في ربوع الكون، ويبلّغ دعوة الحق، ويصحح المفاهيم، ويقيم الموازين القسط، ويُرسِّخ القيم الأصيلة، والأخلاق الفاضلة، ويتذكر دائماً فضل الله عليه ورحمته به، ويلهج بحمده تعالى على ما أولاه من النعم وأسداه من الكرم، ويوظِّف هذه النعم في نشر الحق والفضيلة، والذي يتجلى لنا من خلال حديث القرآن عنه أنه ملك مؤمن على علم وصلاح مكَّن الله له فسعى جاهداً ومتجرِّداً لنشر الحق والعدل، إنه الملك والحاكم ذوً القرنين. قال تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَباً (٨٥) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً (٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (٨٩) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً (٩٠) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْماً لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً (٩٧) (الكهف: ٨٤-٩٧)، والذي يعنينا أن نتدبره في قصته، ونستخلص

١ / معالم التنزيل للبغوي ١ / ١٩٥.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

منها الدروس والعبر في الدعوة والإصلاح والقيادة والإدارة والسياسة والقضاء، يقول تعالى:(إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) (الكهف:٨٤): مكّن الله له في الأرض ووهبه أسباب النصر والتمكين وأصول السياسة وفنون التدبير، فأحسن استغلال هذه المنح والمواهب على أتمِّ وجه، بل جعلها ركيزةً ومنطلقا إلى ريادة الكون بالعلم والإيمان، والعدل والإحسان ،مكّن له صاحبُ العظمة والسلطان تمكيناً عظيماً في أنحاء المعمورة، وآتاه من الأسباب ما يحتاج إليه في توطيد ملكه وبسط سلطانه وكبت أعدائه وتحقيق مراده. والسبب: هو الوسيلة التي يُتوصَّل بها إلى المطلوب .قال ابن عباس : (وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) (الكهف: ٨٤) ، أي: علماً يتسبب به إلى ما يريد، وقيل: هو العلم بالطُّرق والمسالك[١].» فالمؤمن المستقيم يجد الكرامة والودَّ والقربَ من الحاكم العادل، ويكون من بطانته وموضع عطفه وثقته ورعاية مصالحه وتيسير أموره .أما المعتدي المتجاوز للحدّ، المنحرف الذي يريد الفساد في الأرض فسيلقى العذاب الرادع من الحاكم المقسط في الدنيا، ثم يردُّ إلى ربه يوم القيامة ليلقى العقوبة الأنكى بما اقترفت يداه في حياته الأولى «[٢]. يقول سيد قطب:» ... وحين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحسانه جزاء حسناً، ومكاناً كريماً وعوناً وتيسيراً؛ ويجد المعتدي جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة، عندئذ يجد الناس ما يحفّزهم إلى الصلاح والاستقامة والجد والاجتهاد، أما حين يضطرب ميزان الحكم فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى الحاكم مقدمون في الدولة؛ وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون؛ فعندئذ تتحول السلطة في يد الحاكم سوط عذاب وأداة إفساد، ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد» .[٣]كما هو الحال في النظم المستبدة اليوم المستفردة بالحكم، وهذا يدل على أن الأساس الثاني الذي يقوم عليه نظام الإسلام السياسي هو العدل بين الناس، وأن الجميع أمام القانون متساوون دون عداوة ولا بغض ولا حب، وهذا ما أعلنه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حكى عنه القرآن الكريم، يقول تعالى: (وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ) (الشورى:١٥). وقال ابن عطية : « وقوله: (فَأَتْبَعَ سَبَبًا) (الكهف: ٨٥) ، المعنى : ثم سلك ذو القرنين الطرقَ المؤديةَ إلى مقصدِه، وكان ذو القرنين، على ما وقع في كتب التاريخ يدوس الأرض بالجيوش الثقال، والسيرة الحميدة، والإعداد الموفي، والحزم المستيقظ المتقد، والتأييد المتواصل، وتقوى الله عز وجل، فما لقي أمة ولا مرَّ بمدينة إلا دانت له،

١ / انظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي،٥/ ١٨٥.

٢ / مباحث في التفسير الموضوعي تأليف الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم ، ص ٣٠٥.

٣ / في ظلال القرآن ١٦ /١٢ بتصرف .

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

ودخلت في طاعته، وكل من عارضَهُ أو توقف عن أمره جعله عظةً وآيةً لغيره « .[1]قال تعالى: (حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا) (الكهف: ٩٠)،أي : أقصى الشرق وجدها تطلع على قوم ليس لهم ما يسترهم، لا من البيوت ولا من اللباس، بل هم حفاة عراة لا يأوون إلى شيء من العمارة؛ قيل : لأنهم بأرض لا يمكن أن يستقرّ عليها البناء، أو لما هم عليه من بداوةٍ، وخلوٍّ من جميع مظاهر التمدُّن والرقيِّ . ولا بدّ أنه رحمه الله – وقد حمل مشاعل النور وراية الإصلاح – قد ارتقى بتلك البلاد ونهض بها وألحقها بركب الحضارة، فرسالة المؤمن رسالة تنوير وتحرير، رسالة إصلاح وتعمير، رسالة نهوض وتطوير، قال تعالى: (كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا) (الكهف: ٩١) ، أي لا يعزب ذو القرنين وجيوشُه عن علمنا مهما بلغوا من أصقاع بعيدة وبلادٍ نائيةٍ، ولا يخفى علينا تدبيره وسياسته، فهو مهما شرَّق أو غرَّب، في محيط ملك الله الواسع وسلطانه العظيم وتحت قهره وإرادته، وكلِّ هذه البلاد البعيدة التي وصلها ذو القرنين: يعلمها الله تعالى فلا يخفى عليه من أحوالها خافيةٌ، وقد أحاط ربُّ العالمين خبراً بما لدى ذي القرنين من مواهب وملكات وطاقات وإمكانات تؤهله لارتياد الأقطارِ قائداً مظفراً وحاكماً عادلاً، وهذه هي القاعدة الثانية التي يقوم عليها نظام الإسلام السياسي وهي إقامة العدل بين الرعية في الحكم. فلما بلغ بلاد الشرق الأقصى قضى فيهم بعدله وحكمته كما قضى فيمن سبقهم من أهل الغرب، حيث دعاهم لدعوة الحق وأقام عليهم الحجج القاطعة والبراهين الساطعة، ثم عاقب أهل الكفر والطغيان وسالَم أهل الحقِّ وكرَّمهم وقربهم وبشَّرهم بما عند الله من ثواب عظيم.لأنه ليس في دين الله امتيازات لأي فرد كائناً من كان، فالحق حق للجميع، والجرم والذنب ذنب للجميع، والحلال حلال على الكل ، والحرام حرام عليهم كذلك، حتى الحاكم نفسه لا يستثنى من سلطة القانون الإلهي، والنبي صلى الله عليه وسلم يوضح هذه القاعدة فيقول: (إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُقِيمُونَ الْحَدَّ عَلَى الْوَضِيعِ وَيَتْرُكُونَ الشَّرِيفَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ فَعَلَتْ ذَلِكَ لَقَطَعْتُ يَدَهَا)[2]. فلا يزال يرتقي سُلَّمَ النهوض والتقدم، ويجتهد في الأخذ بالأسباب وتنميتها، وفي تكرار هذه العبارة : ما يدلُّ على حرص هذا القائد الرباني على الأخذ بالأسباب واجتهاده في تحصيلها وتطويرها وتطويعها لتحقيق الهدف، ونيل المراد، قال تعالى:(حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا

١ /(١) – المحرر الوجيز لابن عطية ٣/ ٥٤٠.

٢ /البخاري في الصحيح، كتاب الحدود، باب (٦٧٨٧)، مسند أحمد، حديث عائشة رضي الله عنها، ١٨٧/٦.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) (الكهف: ٩٠ – ٩٨). بعد أن ساهم في نهوض هذه الشعوب البدائية الفقيرة وتنويرها، توجَّه بهذا الخير إلى موضع عبَّر عنه القرآن بأنه بين السدين، منطقة يحيط بها جبلان شاهقان وَعِرانِ، حيث يتسلل المفسدون من قوم يأجوج ومأجوج إلى البلاد المجاورة، ينهبون ثرواتها ويعيثون فيها فساداً، فطلب أولئك المستضعفون المنكوبون من ذي القرنين أن يحميهم من أولئك المعتدين، واقترحوا عليه أن يبني سدا منيعا يحجزهم، على أن يجمعوا له ما يشاء من أموال وثروات، وفي هذا ما يدل على ثقتهم في أمانته وقدراته، قال تعالى: (فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا) (٩٤)، وقوله: (وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا) (الكهف:٩٣)، وجد ذو القرنين من دون السدّين قوماً لا يكادون يفقهون قول قائل سوى كلامهم، ولا يكادون يُفقهون أحداً قولهم، مع ذلك تمكن من معرفة مطالبهم وفهمهم وتفهيمهم، بفضل ما وهبه الله تعالى من أسباب.[1] قال تعالى: (قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ) (الكهف:٩٥)،عرضوا على ذي القرنين أن يعطوه من أموالهم ما يستعين به على بناء السدِّ، وأجرة بنائه ليحميهم من أولئك المفسدين. قال تعالى: (قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا) (الكهف:٩٥) ، أجابهم هذا القائد الزاهد والإمامُ الراشد إلى مطلبهم دون مقابل، فهو صاحب رسالة إصلاح يؤديها في ربوع الكون، فهل يطمح في أعراض الدنيا الزائلة أم يجنح إلى همم قاصرة، وقد وهبه الله تعالى من العلم والتمكين والفهم والتوفيق ما زاده طاعة وانقياداً وعزماً واجتهاداً في غرس بذور الخير أينما حلَّ. قال الإمام الطبري : « قال ذو القرنين: الذي مكنني في عمل ما سألتموني من السدّ بينكم وبين هؤلاء القوم ربي، ووطّأه لي، وقوّاني عليه، خير من جُعلكم، والأجرة التي تعرضونها عليّ لبناء ذلك، وأكثر

١ / جامع البيان للطبري ١٨ / ١٠٣ ، قرأ حمزة والكسائي وخَلَف بضمّ الياء وكسر القاف: (يُفقهون) من أفقهت فلانا كذا أفقهه إفقاها: إذا فهمته ذلك ، والباقون بفتح القاف والياء (؟) ، من فقَه الرجل يفقَه فقها . النشر في القراءات العشر ٢/ ٣١٥ والغاية في القراءات العشر ١٩٩ والسبعة ص ٣٩٩.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

وأطيب، ولكن أعينوني منكم بقوة، أعينوني بفَعَلة وصُنَّاع يُحسنون البناء والعمل. «[1]. وقوله: (أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا) (الكهف:٩٥)، يقول: أجعلُ بينكم وبين يأجوج ومأجوج ردماً، والردم: هو الحاجز، وهو أمنع من السدّ وأشدّ .جمع إلى جانب العلم النافع والخبرة الدقيقة والمهارة الفائقة والإمكانات الهائلة التواضعَ الرفيعَ والإيمانَ العميقَ والنفْسَ الراضية العفيفةَ، والأياديَ السخيةَ النظيفةَ، والأريحية والشَّهامة:(قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا)(الكهف:٩٥) . لم يستغل حاجتهم في تجريدهم من الممتلكات والثروات، كما تفعله في عصرنا الحاضر الأمم الغالبة « المتحضرة « مع الشعوب المقهورة « النامية « من نهب ثرواتهم وحصد خيراتهم وجني ثمارهم ؛ والتآمر على بقائهم تحت وطأة الجهلِ ونير الاستبداد .ما فعل ذو القرنين كما تفعل تلك الدول التي ترهق الشعوب الفقيرة بالديون المركَّبة، تطوِّقُ بها أعناقهم وتُلهب بها ظهورَهم، وتنتزعُ ولاءَهم وخنوعهم ؛ وترغِمُ أنوفَهم . (آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا) (الكهف:٥٦)،: يأتي الحديث في القرآن عن قصةٍ عجيبة، قصة ذلك الرجل الصالح الذي مكَّن الله له، وهيأ له الأسبابَ فأخذ بها، واجتهدَ في استثمارها وتطويرها، فطوَّف في الأرض، وجال في أقطارها، قائداً ظافراً، وحكماً عادلاً، وسلطاناً قوياً، وعبداً شكوراً، فملأ الدنيا عدلاً ونوراً حمل راية الإصلاح والتغيير، وطاف بجنده وعتاده، لينشر العدالة في ربوع الكون، ويبلّغ دعوة الحق، ويصحح المفاهيم، ويقيم الموازين القسط، ويُرسِّخ القيم الأصيلة، والأخلاق الفاضلة، ويتذكر دائماً فضل الله عليه ورحمته به، ويلهج بحمده تعالى على ما أولاه من النعم وأسداه من الكرم، ويوظِّف هذه النعم في نشر الحق والفضيلة، والذي يتجلى لنا من خلال حديث القرآن عنه أنه ملك مؤمن على علم وصلاح مكَّن الله له فسعى جاهداً ومتجرِّداً لنشر الحق والعدل، إنه الملك والحاكم ذو القَرنين. ، أي جيئوني بِزُبَرِ الحديد، وهي جمع زُبْرة، والزُّبْرة:القطعة من الحديد، فجعلها بين الصدفين أي حافتي الجبلين حتى إذا ساوى بينهما بما جعل بينهما من زُبر الحديد، قال للعمَّال: انفخوا النار قَالَ انْفُخُوا) فنفخوا، حتى إذا جعل ما بين الصدفين من الحديد ناراً: (قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا) (٩٦))، أصبّ عليه قطراً، والقِطْر: النحاس . وقد استخدمت هذه الطريقة حديثاً في تقوية الحديد ؛ فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته، كما أن النحاس أملس ؛ لا يمكن تسلقُه، فهدى الله ذا القرنين إلى هذه الوسيلة

١ / جامع البيان للطبري ١٨ / ١١٣.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

الناجحة . (فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ) (الكهف: ٩٧): فما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوا الردم الذي جعله ذو القرنين حاجزاً بينهم، وبين من دونهم من الناس، فيصيروا فوقه وينزلوا منه إلى الناس لعلُّوه ومَلاسَته: (وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا) (٩٧)) ، يقول: ولم يستطيعوا أن ينقبوه من أسفله؛ لسُمْكِه وصلابَته. (قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي) (الكهف:٩٨) ، قال بعد أن أتم البناء بإحكام وإتقان: (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي) (الكهف:٩٨) أي: هذا البنيان رحمة وفضل من الله الذي وهبني العلم ومنحني الملكات والطاقات، وهيأ لي الأسباب حتى تم البناء الذي يحجز أولئك المفسدين ويحمي هؤلاء المستضعفين، (جَعَلَهُ دَكَّاءَ) (الكهف:٩٨) ،أي: إذا اقترب الوعد الحق ﴿ دكَّاءَ﴾ أي : مساويًا للأرض، (وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا) (الكهف:٩٨) ، أي: كائنًا لا محالة . فأشار إلى مدة انتهاء صلاحية هذا الردم وذلك عند تحقق الوعد الإلهي . عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ أُمِّ سَلَمَةَ عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ، عَنْ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ أَنَّ النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم - اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ وَهُوَ يَقُولُ: « لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ»[1]. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ (إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ لَيَحْفِرُونَ السَّدَّ كُلَّ يَوْمٍ حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غَدًا، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ كَأَشَدِّ مَا كَانَ ،حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ مُدَّتُهُمْ ،وَأَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَبْعَثَهُمْ إِلَى النَّاسِ ،حَفَرُوا حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ : ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَيَسْتَثْنِي فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ وَهُوَ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ فَيَحْفِرُونَهُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ، فَيُنَشِّفُونَ الْمِيَاهَ وَيَتَحَصَّنَ النَّاسُ مِنْهُمْ فِي حُصُونِهِمْ فَيَرْمُونَ بِسِهَامِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ، فَتَرْجِعُ وَعَلَيْهَا كَهَيْئَةِ الدَّمِ فَيَقُولُونَ: قَهَرْنَا أَهْلَ الْأَرْضِ وَعَلَوْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ، فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَغَفًا فِي أَقْفَائِهِمْ فَيَقْتُلُهُمْ بِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ دَوَابَّ الْأَرْضِ لَتَسْمَنُ شَكَرًا مِنْ لُحُومِهِمْ وَدِمَائِهِمْ)[2].

تعتبر قصة ذي القرنين نموذجٌ رائعٌ ومثالٌ واقعيٌّ للقائد الراشد والحاكم العادل والفاتح المؤيَّد، الذي يمكنه الله في الأرض، وييسر له الأسباب؛ فيبلغ مشارق الأرض ومغاربها؛ فلا يتجبر ولا يتكبر، ولا يطغى ولا يتبطر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للكسب المادي، واستغلال الأفراد وابتزاز الشعوب، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق؛ ولا يسخر

١ / البخاري في صحيحه -كتاب الأنبياء - باب: قصة يأجوج ومأجوج - ٢/٣٦٨ حديث رقم: -٣٣٤٦ ، ومسلم في صحيحه كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، - ٤ / ٢٢٠٧ - حديث رقم : ٢ - (٢٨٨٠) .

٢ / سنن الترمذي، باب فتنة الدجال والمسيح، رقم(٢٧٥).

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

أهلها في أغراضه وأطماعه، إنما ينشر العدل في كل مكان يحلُّ به، ويساعد المتخلفين المستضعفين، ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل؛ ويستخدم القوة التي يسرها الله له في التغيير والإصلاح، ودفع العدوان وإحقاق الحق، ويطبق فيهم أيضاً الأساس الثالث وهو المساواة في الدولة الإسلامية في الحقوق والواجبات بين كافة المسلمين دون النظر إلى اللون أو الجنس أو اللغة أو الوطن، ولم يكن لأي فرد أو جماعة أو طبقة أو جنس أو شعب داخل حدود الدولة الإسلامية إي نوع من التمايز في الحقوق، ولا يمكن أن تكون منزلة فرد أدنى أو أقل من آخر، يقول تعالى:(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (الحجرات:١٣)، والنبي صلى الله عليه وسلم يوضح هذا المعنى بقوله:(يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى)[1] . ومن الدروس المستفادة من هذه القصة ما يلي: ضرورة إعداد الجيوش وتجهيزها بأحدث التقنيات مع إعداد الجنود والقادة، فلا سبيل إلى إزاحة الأنظمة المستبدة وحماية المستضعفين، وتمهيد طريق الدعوة، وتأمين المدعُوِّين، ونشر العدالة والرحمة، إلا بالجهاد، و توفرت فيه كل شروط الحاكم المسلم وصفاته، التي بينها القرآن الكريم، ومن صفات الإمام العادل أنه حربٌ على أعداء الله وسلم لأولياء الله، يدني أهل الطاعة ويباعد أهل المعصية، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويُذكر دائماً بفضل الله ورحمته، ومن واجبه أن يصون البلاد من كل مكروه: قال ابن العربي : « وعلى الملك فرض أن يقوم بحماية الخلق في حفظ بيضتهم، وسد فُرْجَتِهِمْ، وَإِصْلَاحِ ثَغْرِهِمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ الَّتِي تَفِيءُ عَلَيْهِمْ، وَحُقُوقِهِمْ الَّتِي يَجْمَعُهَا خَزَنَتُهُمْ تَحْتَ يَدِهِ وَنَظَرِهِ، حَتَّى لَوْ أَكَلَتهَا الْحُقُوقُ، وَأَنْفَدَتْهَا الْمُؤَنُ، وَاسْتَوْفَتْهَا الْعَوَارِضُ، لَكَانَ عَلَيْهِمْ جَبْرُ ذَلِكَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَعَلَيْهِ حُسْنُ النَّظَرِ لَهُمْ، وَذَلِكَ بِثَلَاثَةِ شُرُوطٍ :

الْأَوَّلُ : أَلَّا يَسْتَأْثِرَ بِشَيْءٍ عَلَيْهِمْ .

الثَّانِي : أَنْ يَبْدَأَ بِأَهْلِ الْحَاجَةِ مِنْهُمْ فَيُعِينُهُمْ .

الثَّالِثُ : أَنْ يُسَوِّيَ فِي الْعَطَاءِ بَيْنَهُمْ عَلَى مِقْدَارِ مَنَازِلِهِمْ، فَإِذَا فَنِيَتْ بَعْدَ هَذَا ذَخَائِرُ الْخِزَانَةِ وَبَقِيَتْ صِفْرًا، فَأَطْلَعَتْ الْحَوَادِثُ أَمْرًا بَذَلُوا أَنْفُسَهُمْ قَبْلَ أَمْوَالِهِمْ، فَإِنْ لَمْ يُغْنِ ذَلِكَ فَأَمْوَالُهُمْ تُؤْخَذُ مِنْهُمْ عَلَى تَقْدِيرٍ، وَتُصْرَفُ بِأَحْسَنِ تَدْبِيرٍ .

١ /مسند أحمد بن حنبل، حديث رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، رقم (٢٣٥٣٦).

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

فَهَذَا ذُو الْقَرْنَيْنِ لَمَّا عَرَضُوا عَلَيْهِ الْمَالَ قَالَ: لَسْتُ أَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا أَحْتَاجُ إِلَيْكُمْ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ، أَيْ اخْدِمُوا بِأَنْفُسِكُمْ مَعِي، فَإِنَّ الْأَمْوَالَ عِنْدِي وَالرِّجَالَ عِنْدَكُمْ؛ وَرَأَى أَنَّ الْأَمْوَالَ لَا تُغْنِي دُونَهُمْ، وَأَنَّهُمْ إِنْ أَخَذُوهَا أُجْرَةً نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، فَعَادَ عَلَيْهِمْ بِالْأَخْذِ، فَكَانَ التَّطَوُّعُ بِخِدْمَةِ الْأَبْدَانِ أَوْلَى».[1] وهذه قاعدة أخرى يقوم عليها نظام الحكم في الإسلام هي المسئولية، لأن الحكومة وسلطتها وأموالها أمانات لله عند المسلمين ينبغي إيكالها لأناس يخشون الله عادلين مؤمنين، وليس لأحد حق التصرف في هذه الأمانات بطرق مشبوهة أو لأغراض شخصية، يقول تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ) (النساء:٥٨). والنبي عليه الصلاة والسلام يوضح عظم المسئولية فيقول:» مَا مِنْ وَالٍ يَلِي رَعِيَّةً مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَيَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لَهُمْ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ».[2]

ومن الدروس أيضاً: في حبس ذي القرنين ليأجوج ومأجوج وراء الردم: دليلٌ على اتخاذ السجون، وحبس أهل الفساد فيها، لمعاقبتهم ومنع شرِّهم وتقويم سلوكهم . ومن الفوائد المستفادة: والقواعد المستنبطة: دفع الشر بأيسر ما يندفع به، ذلك أن ذا القرنين مع حزمه وقوته رأى أن بناء السد كاف في دفع أذى يأجوج ومأجوج . ومن الفوائد العظيمة من هذه القصة الكريمة: شكر المنعم وإجلالُهُ والتواضع لعظمته والإقرار بفضله: قال السعدي: «فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل، أضاف النعمة إلى موليها وقال: (قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي) أي: من فضله وإحسانه عليَّ، وهذه حال الخلفاء الصالحين، إذا منَّ الله عليهم بالنعم الجليلة، ازداد شكرهم وإقرارهم، واعترافهم بنعمة الله كما قال سليمان – عليه السلام – ، لما حضر عنده عرش ملكة سبأ مع البعد العظيم، قال تعالى: (قَالَ هذا من فَضْلِ رَبِّي ليبلوني أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ)(النمل : ٤٠) ، بخلاف أهل التجبُّر والتكبر والعلو في الأرض فإن النعم تزيدهم أشراً وبطراً «[3] . أما ذو القرنين فإنه نموذجٌ رائعٌ للملك الصالح المتعفف الذي مكَّنه الله في الأرض فأقام ميزان العدل والإحسان، وأزال سلطان الكفر والطغيان، وحمل رايةَ الحقِّ ومصابيح الهدى، وعاش الناس في عهده حياةً آمنة مطمئنةً.

فالقرآن الكريم كله جاء دعوة للإصلاح في مختلف جوانب الحياة، وفي كل آي القرآن،

١ / أحكام القرآن لابن العربي ٣ / ٢٤٣

٢ /صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب من استرعى رعية فلم ينصح، رقم (٧١٥١).

٣ / تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٤٨٦

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

ولكن نقف هنا في لمحة سريعة نقارن فيها بين دعوات الإصلاح هنا وهناك، لعل دعاة الإصلاح اليوم من القادة والساسة والعلماء والحكام يستفيدوا من أسلوب القرآن، وهم يعبرون عباب الإصلاح الشاق وأمواجه المتلاطمة، علهم يرسون إلى البر بأمان ما تبعوا منهج القرآن، فنجد مثلاً:بعد الحديث عن رحلة موسى مع الخضر وما انطوت عليه من عجائب وآيات، وما تفتقت عنه من فوائد وثمرات، وعبر وعظات، يأتي الحديث عن قصة أخرى عجيبة، قصة ذلك الرجل الصالح الذي مكَّن الله له، وهيأ له الأسبابَ فأخذ بها، واجتهدَ في استثمارها وتطويرها، فطوَّف في الأرض، وجال في أقطارها، قائداً ظافراً، وحكماً عادلاً، وسلطاناً قوياً، وعبداً شكوراً، فملأ الدنيا عدلاً ونوراً .

وأما قصة موسى مع الخضر عليهما السلام؛ طاف موسى – عليه السلام – طلباً للعلم النافع،وطاف الخضر بأمر الله تعالى حاملاً راية الإصلاح والتغيير، كذلك طاف ذو القرنين بجنده وعتاده، لينشر العدالة في ربوع الكون، ويبلّغ دعوة الحق، ويصحح المفاهيم، ويقيم الموازين القسط، ويُرسِّخ القيم الأصيلة، والأخلاق الفاضلة، كذلك تضعنا الآيات أمام مقارنةٍ بيِّنة بين صاحب الجنتين الذي اغتر بجنتيه وجحد النعمة وتمادى في الضلال، وبين صاحبه الذي يذكِّره بالله ويحذره من عقابه، وبين ذي القرنين الذي يتذكر دائماً فضل الله عليه ورحمته به، ويلهج دائماً بحمده تعالى على ما أولاه من النعم وأسداه من الكرم، ويوظِّف هذه النعم في نشر الحق والفضيلة في أرجاء الأرض .

و هناك مشهد آخر تمثله قصة سخرية أهل مدين من نبي الله شعيب كما يتوقع بالسخرية اليوم ناس على دعاة التوحيد فيقولون:(إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ!)(هود:٨٧)، وهم يعنون عكس معناها، فالحلم والرشد عندهم أن يعبدوا ما يعبد آباؤهم بلا تفكير، وأن يفصلوا بين العبادة والتعامل في السوق! وكذلك هو عند المثقفين المتحضرين اليوم الذين يعيبون على المتعصبين الرجعيين!!!، ويتلطف شعيب تلطف صاحب الدعوة الواثق من الحق الذي معه؛ ويعرض عن تلك السخرية لا يباليها وهو يشعر بقصورهم وجهلهم، يتلطف في إشعارهم أنه على بينة من ربه كما يجده في ضميره وقلبه؛ وأنه على ثقة مما يقول لأنه أوتي من العلم ما لم يؤتوا، وأنه إذ يدعوهم إلى الأمانة في المعاملة سيتأثر مثلهم بنتائجها لأنه مثلهم ذو مال وذو معاملات؛ فهو لا يبغي كسباً شخصياً من وراء دعوته لهم؛ فلن ينهاهم عن شيء ثم يفعله هو ليخلو له السوق! إنما هي دعوة الإصلاح العامة لهم وله وللناس، وليس فيما يدعوهم إليه خسارة عليهم كما يتوهمون: (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

لَهَا كَارِهُونَ٨٢ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)(هود:٢٨- ٣٢) .هكذا يجب أن يكون دعاة الإصلاح؛ واثقون في خطاهم، متيقنون من نصر الله لهم طالما أنهم على منهجه، ويسيرون وفق شريعته، قال تعالى:(إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ) هود:٨٨) ، الإصلاح الحقيقي العام للحياة والمجتمع الذي يعود صلاحه بالخير على كل فرد وكل جماعة فيه؛ وعلى كل مؤسسة أو هيئة، أو حزب، وإن خيل إلى بعضهم أن اتباع العقيدة والخلق يفوت بعض الكسب الشخصي، ويضيع بعض الفرص، فإنما يفوت الكسب الخبيث، والغرض السيئ، ويضيع الفرص القذرة؛ ويعوض عنهما كسباً طيباً ورزقاً حلالاً، ومجتمعاً متضامناً متعاوناً لا حقد فيه ولا غدر ولا خصام ولا عزل ولا انتقائية ولا إقصاء لأحد!.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

الخاتمة:

أختم بحثي هذا بالنتائج التالية:

١- مفهوم الإصلاح في اللغة جاء يحمل عدة معانٍ: منها نقيض الفساد، ومنها ما يتمكن به الخير ويدفع به الشر، ومنها الاستقامة والسلامة من العيوب، ويعني: تهذيب النفس والتعدي إلى الآخرين، ويعني ما تزال به الخصومة ويتحقق به الصلح.

٢- يقصد به في الاصطلاح القضاء على الفساد في النفس البشرية والأجهزة الحكوميّة والمتناقضات في أهداف المؤسَّسات المختلفة ونظمها. وعند المصلحين الاجتماعيين الدينين يعرف بإصلاح ذات البين .

٣- وفي القرآن الكريم جاء بمفهومه الشامل الذي يعالج كافة جوانب الحياة العقدية والفكرية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وانطلق الأنبياء في دعواتهم من الدعوة إلى إصلاح العقيدة وهي الأساس لكل إصلاح.

٤- جاءت نبوة خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم، شاملة وكاملة ومهيمنة ومعنية بأوجه الإصلاح كلها، مستغرقة لمعانيه، ومعممة لفلسفة تنزيله، داعية إلى بقائه واستمراره، مؤكدة بشدة على حيويته وأهميته.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً:

- إبراهيم مصطفى وزملائه، المعجم الوسيط، دار الدعوة، استانبول، ١٤١٠ه- ١٩٨٩م.
- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط١٩٦٩،٤م.
- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ط٢، دار الحديث، ١٤١٠ه ـــــ ١٩٩٠م.
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٨ه- ١٩٨٨م.
- آل بوطامي أحمد بن حجر، تطهير المجتمعات من آثار الموبقات، دارا لكتب القطرية، ط١٩٧٨،٢م.
- الآلوسي، العلامة شهاب الدين السيد محمود الآلوسي، روح المعاني، دار الفكر، بيروت لبنان، بدون ط.
- أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس، البحر المديد، الطبعة الثانية / ٢٠٠٢ م- ١٤٢٣، دار الكتب العلمية- بيروت.
- البخاري، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط١، ١٤٠٠.
- خليفة البدوي، رسالة الإصلاح، مكتبة البيان، الكويت، ط١٤١٧،١ه، ١٩٧٩م.
- د أحمد عبد الله تونسي، جولة في ذات المسلم، مكتبة البيان، الكويت،ط١، ١٤٠٩، ١٩٨٩م.
- الشرباصي، موسوعة أخلاق القرآن الكريم، دار الرائد العربية، بيروت،ط١، ١٩٧٨م.
- الرازي، الإمام فخر الدين محمد الرازي، تفسير الرازي، بيروت، دار القلم.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، بيروت، دار الشروق، ١٩٨٨م.
- العودة إلى القرآن، مجدي الهلالي، ط١، مصر، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ٢٠٠٣م.
- الغزالي، أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، مكتبة عبد الوكيل الدروبي، دمشق، سوريا، بدون.
- للدكتور صبري محمد خليل، معنى الإصلاح في القرآن، جامعة الخرطوم، (drsabrikhalil.wordpress.com).
- لأبي يعلى الحنبلي، طبقات الحنابلة، شبكة مشكاة الإسلامية، http://www._almeshkat.net

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

- الميرزا محسن آل عصفور، القاموس الوجيز لمعاني كلمات القرآن الكريم ، موقع شبكة مشكاة الإسلامية http://www.almeshkat.net/
- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم ، دار الجيل بيروت + دار الأفاق الجديدة ـ بيروت.
- أبو داود، للحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني المتوفى سنة ٢٧٥ هـ، سنن أبي داود، تحقيق وتعليق سعيد محمد اللحام،طبعة جديدة منقحة ومفهرسة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبدا لله القزويني، سنن ابن ماجه، دار الفكر-بيروت، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، موقع شبكة مشكاة الإسلامية.
- الترمذي، للإمام الحافظ أبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، سنن الترمذي وهو الجامع الصحيح، ٢٠٩ – ٢٧٩، حققه وصححه عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر للطباعة والنشر، موقع يعسوب.
- النسائي، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، سنن النسائي الكبرى، دار الكتب العلمية – بيروت ،الطبعة الأولى ، ١٤١١ – ١٩٩١، تحقيق : د.عبد الغفار سليمان البنداري ، سيد كسروي حسن.
- د/ مسفر بن علي القحطاني ،النظام الاقتصادي في الإسلام، جامعة الملك فهد للبترول والمعادن، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.
- مسند أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبدا لله الشيباني، مؤسسة قرطبة، القاهرة، الأحاديث مذيلة بأحكام شعيب الأرنئوط.
- دائرة المعارف الإسلامية، مادة فتوى، الطبعة الإنجليزية الجديدة.
- مالك بن أنس، أبي عبد الله الإمام مالك بن أنس الاصبحي رضي الله تعالى عنهم أجمعين، المدونة الكبرى للإمام مالك التي رواها الإمام، سحنون بن سعيد التنوخي عن الإمام عبد الرحمن بن القاسم العتقي، عن إمام دار الهجرة وأوحد الأئمة الأعلام ،(أول طبعة ظهرت على وجه البسيطة لهذا الكتاب الجليل) ،(حقوق الطبع محفوظة للملتزم) (حضرة الحاج محمد أفندي ساسي المغربي التونسي التاجر بالفحامين بمصر) ،طبع بمطبعة السعادة بجوار محافظة مصر.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com